الدكتور مصطفى غالب

في سبيل موسوعة فلسفية

٩

نيتشه

دار ومكتبة الهلال

نيتشـــه

في سبيل
موسوعة
فلسفية

٩

نيتشه

تأليف
الدكتور مصطفى غالب

منشورات
دار ومكتبة الهلال

١٩٨٨م.

الإدارة العامة: دار ومكتبة الهلال بئر العبد - شارع مكرزل

بيروت - ص.ب: ١٥/٥٠٠٣

مقدمة

امتزجت فلسفة نيتشه بحياته وأصبحت جزء لا يتجزأ منها ، غاص في أعماق الحكمة فتفلسف في كيانه ووجوده الكامل ، حيث استمد آراءه ونظرياته من أعماق تفاعلاته النفسية ومن وجوده الشخصي . وقف كالطود الشامخ أو المارد الجبار تجاه أفكار وأمور اصطخبت في أعماقه ، فاحياها ذهنه الخلاق المبدع ، فتبوأت لديه مكان الواقع المباشر الذي يتعامل معه الناس في تجاربهم الحية الذاتية .

من الواضح أن نيتشه قد سخر من أفكار ونظريات وآراء الحكماء التجريديين ، وأكد أن

أحط صور الانسان وأكثرها تشويها هي صورة الانسان النظري • ونقد أصحاب المذاهب الفلسفية داعيا الى الابتعاد عن الجمود الفكري ، والمناداة بالتطور والتجدد الذي يواكب سير الأمن التصاعدي، فوصل في تفكيره العقلي الى القمة الشماء ، وتربع على عرش الحكمة في عصره •

لقد كان نيتشه صاحب رسالة حضارية في الحياة لم تكن رسالة فيلسوف حكيم صاحب مذهب نظري، وانما كانت رسالة ناقد ومقوم للحضارة التي يعيشها • وعلى الرغم من كل ما امتازت به نظرته الى الحضارة الأوروبية المعاصرة له من عمق ومن قدرة على النفاذ الى أبعد الأغوار ، فانه كان ابنا وفيا لحضارة لم تكتمل • فنيتشه نتاج أصيل تمخض عنه القرن التاسع عشر ، وما كان في وسعه، وهو يعيش في ذلك القرن ، أن يصدر حكما دقيقا شاملا على الحضارة الغربية المعاصرة له ، لسبب واضح هو أن تلك الحضارة كانت تمر بفترة انتقال الى عهد جديد لم تكن عناصره قد اكتملت بعد ، بل لم يكن بعضها قد ظهرت بوادره بالأصل •

ففي القرن التاسع عشر كان النمط الفكري

الشائع في ميدان الفلسفة الحضارية ، هو النمط الممزوج بالقلـق والاضطراب ، ولم يكـن مـن المستغرب أن تظهر نماذج شاذة لمفكرين يدعون الى الفردية المطلقة ، أو الى الفوضوية ، أو الى القومية الضيقة الأفق ، اذ أن اضطراب التفكـير وعـدم استقراره كان أمرا طبيعيا في عصر انتقل فيـه العالم الغربي من حياة قديمة الى حياة جديدة ، دون أن يدرك المعالم الكاملة لتلك الحياة الجديدة أو يستكشف أبعادها الحقيقية أو يهتدي بوضوح الى معالم دروبه من خلالها .

وفي تلك الفترة من عصر الزمن اختفت طبقات كاملة ، وظهرت طبقات جديدة لم يكن لها في خضم الاقطاعيين والنبلاء أي وجود اجتمـاعي يجسـد وجودها وكيانها السياسي ، ومن المؤكد أن تندثر معالم الثقافة التي كان يرعاها النبلاء والأشراف ، وتطل معالم أخرى تنسجم مع أهـداف الطبقـات الناشئة التي لا تحتل أي جذر في جذور التاريـخ البعيدة ، مما أدى بالتالي الى تحول حياة الانسان الأوروبي ، الى التفاهة والابتذال ، ولكن مع كل هذا التحول العقلاني فان الرؤية لعرفانيـة قـد توضحت وظهرت معالم الطريق التي تقود الانسان

الى الأكمل والأمثل مجرد خيالات ومشاريع في مخيلات بعض المفكرين أمثال نيتشه الذي جسد في مصنفاته المستقبل النير الذي ينتظر الانسان الأوروبي ٠

والانسان الأوروبي الذي تصوره نيتشه ، لن يظهر بوصفه امتدادا وارتقاء للفرد الأرستقراطي المنزوي في كواليس الأبهة والعظمة ، بل ان الأدلة تشير على أنه سيظهر من بين طبقات الشعب الكادح ، أولئك الذين كان نيتشه يعتبرهم عبيدا لا سادة ٠

ومن الواضح أن هذا العبقري الفذ قد عالج القضايا الانسانية بأسلوب غنائي رائع ، وتسللت ببصيرته النفاذة في أعماق الذات الانسانية ،فخاطبها بصراحة وصدق واتزان ، وعالج كثيرا من الامراض التقليدية المزمنة المستعصية ، بطريقة الحملات الناقدة القاسية المدمرة ، اتسمت بطابع العنف والقسوة ، والنزعة الى اللامعقول والى الفردية المطلقة ، التي تعتبر مدماكا شامخا للتفوق والنبوغ ٠ اذ أنه من المحال أن نجد عبقريا ينادي بالفردية المطلقة ، ويكون ذا اتجاه عقلي نير مليم ، الا ويقدم

للبشرية خدمات جليلة ، تساهم مساهمة كبرى في نموها التصاعدي ، ويساعد على هدم صروح المعقول المقننة بمفهومها الرجعي القديم ، مفهوم الأزلية والثبات الأبدي ، والسمو على الواقع والحياة .

وليس من شك بأن نيتشه قد سار في الاتجاه الى اللامعقول ، والى الفردية ، باعتبار أن عصره كان يفرض عليه ذلك ويدعوه لمعالجة الأمور التي كان يمجها وينفر منها ، بأسلوب الناقد الهادف الى المثل العليا ، والى التحليق بافكاره المبدعة بعيدا عما يمثل في عصره من مسرحيات خداعة تجسد الظروف الاجتماعية التي تكبل انسان ذلك العصر بقيود قاسية صلبة .

لقد ثار نيتشه ثورة لاهبة على كافة الأفكار والعادات والتقاليد التي كانت معروفة في عصره ، يدعو بقسوة وشجاعة الناس الى ضرورة تقويضها وازالة معالمها عن طريق العنف والقسوة ، بدون هدنة أو مسايرة أو هوادة .

ومهما امتازت نظرة نيتشه الى الحضارة الأوروبية المعاصرة فلا تزال قدرته على التعبير

بعمق ودقة تضفي على هذه الحضارة رغم أنها في عصره كانت تمر في طور النضوج وعدم الاكتمال الكلي آية من بوادر الشذوذ والقلق والفوضى ، واضطراب التفكير وعدم الاستقرار ، لاعداد الأفكار من أجل التقدم والازدهار الذي سيعم الانسانية جمعاء .

ويجب أن نلاحظ ونحن ندرس نيتشه بأن نزعته اللاعقلية كانت من الضرورات الرئيسية الى عصره ، والى التفكير العقلاني الذي كان سائد فيه ، حيث عشعشت الفوضى وعدم الاستقرار ، والتزمر الشديد من الاحوال السائدة .

بيروت في ١٩٧٩/٥/٢٥

الدكتور مصطفى غالب

حياة نيتشه وسيرته :

ولد نيتشه في أواسط القرن التاسع عشر ، في ١٥ اكتوبر من عام ١٨٤٤ ، في بلدة ريكن قرب ليبتسج • وصادف يوم مولده ، يوم عيد الملك البروسي الحاكم فريدريك غليوم الرابع • وقد جلبت هذه المناسبة السعيدة السرور الى قلب والده الذي ربي العديد من أعضاء العائلة المالكة ،فأطلق على وليده الجديد اسم فريدريك تيمنا باسم الملك، وبهذا الصدد يقول نيتشه : « لقد كانت هناك ، في كل الاحوال ، فائدة واحدة في اختيار هذا اليوم لولادتي ، اذ أن يوم مولدي كان طيلة أيام طفولتي، يوما للاغتباط الشعبي » •

والجدير بالملاحظة أن أسرة نيتشه وأجداده لأبيه ، كان معظمهم من رجال الدين ، وأمه تنحدر من أسرة ايلر التي شغل كثير من أفرادها مناصب دينية • ولذلك لعب الدين دورا هاما في طفولته ، فسمى نفسه « عدو المسيح » وكرس حياته ليوجه الى الدين أعنف الانتقادات •

ويظهر أن وفاة أبيه وهو في سن الخامسة جعلته يرسم له صورة أسطورية ، ويمتدح فيه صفات لا شك أنه لم يلمسها فيه عن كثب ، اذ لا يعقل أن يكون قد حلل شخصية أبيه وهو دون الخامسة من عمره ، وعلى العموم ، فقد عاش نيتشه بعد وفاة أبيه في بيئة نسائية خالصة ، ولا بد أن هذه البيئة لم تكن تروق له ، اذا حكمنا على الامر في ضوء حملة نيتشه العنيفة على المرأة فيما بعد •

وفي عام ١٨٥٨ التحق نيتشه بمدرسة بفورتا ، ثم غادرها الى جامعة بون بعد ست سنوات • ولما انتقل معلمه في اللغويات ، ريتشل الى ليبتسج ، لحقه نيتشه اليها • وخلال تلك الفترة بدأ اتجاهه يتبلور في دراسة اللغويات والآداب الكلاسيكية ، وراح ينصرف عن الأمور اللاهوتية ، بعد أن كان

في الاصل ينهد الى التخصص فيها • وظل نيتشه في الجامعة أربع سنوات ، تخللها فترة خدمة عسكرية انتهت بحادثة • ومن المستغرب أن يختار نيتشه ، في نفس العام الذي أنهى فيه دراسته الجامعية ، أستاذا لفقه اللغة في جامعة بازل ، بعد توصية من معلمه ريتشل ، الذي وصفه لدى المسئولين هناك بالعبقرية النادرة • وهكذا بدأت مرحلة شاذة في حياة نيتشه ، هي مرحلة التعليم في الجامعة •

وفي تلك الفترة اهتدى نيتشه الى مصدرين أساسيين من المصادر التي اقتبس منها تفكيره ، ودارت مجمل فلسفته حولها ، اما بالعرض أو بالنقد ، وأعني بهما شوبنهور وفاجنر • أما شوبنهور فسنذكر مدى تأثيره في نيتشه عندما نتعرض لأفكاره الفلسفية ، وأما فاجنر ، فسنفرد له مكانا خاصا عندما نستعرض أعمال نيتشه •

وعندما نشبت الحرب السبعينية بين ألمانيا وفرنسا ، ساهم نيتشه فيها أولا ، فلم يجني منها سوى سلسلة من الامراض التي انتقلت اليه بالعدوى من الجنود المصابين ، وظل يقاسي منها طوال حياته • ويبدو أن نيتشه أثناء خدمته العسكرية لم يؤهله

ضعف بصره للقيام بالأعمال القتالية فمين ممرضا، ومع أنه شهد من هول المعارك ما يكفي ، لكنه لم يدرك أبدا الوحشية الواقعية في ميادين القتال التي ألفتها فيما بعد نفسه بكل الشدة الخيالية المعهودة لدى عديم الخبرة • وحتى فيما يتعلق بمهنته الجديدة التمريض كان مرهف الحس جدا ، فلقد كان منظر الدم يمرضه ، وألم به المرض ، فأعادوه حطاما الى منزله • ومنذ ذلك الحين انتقلت اليه عن طريق العدوى من الجنود المصابين سلسلة من الأمراض ظل يرزح تحتها طوال حياته •

وكان نيتشه في بدء الحرب متحمسا لبني وطنه، ولكنه حين أدرك أن الألمان هم الذين أشعلوا نار الحرب ، وكانوا أول المعتدين ، حمل على هذه الحرب ونتائجها ، وعلى نمو روح التعصب القومي للألمان ، واحتقارهم للفرنسيين ، الذين كان نيتشه دائم الاعجاب بهم •

وعندما عاد نيتشه الى الجامعة لالقاء محاضراته لم يكن متحمسا • ذلك لأن محاضراته لم تصادف النجاح الذي كان يتوقعه ، وكذلك لم يوفق في أبحاثه الفيلولوجية المختلفة ، وكذلك بالنسبة

لأول كتاب صدر له سنة ١٨٧٢ ميلاديـة بعنوان « مولد المأساة من روح الموسيقى » رغم أنه لم يسبق أبدا لأي عالم فيلولوغي أن تحدث بمثل أسلـوب نيتشه من الشعر الغنائي في هذا الكتاب .

ويحدثنا نيتشه في كتابه « مولد المأساة من روح الموسيقى » عن الالهـين اللذين عبدهمـا الفـن الاغريقي . ويتكلم عن ديونيس ، أو باخوس ، اله الخمرة والعربدة والمرح ، اله الحياة المتصاعدة ، اله الغبطـة في الفعـل ، اله الانفعـال الانذهالي والوحي ، اله الغريزة والمغامرة والمعاناة الجسور ، اله الغناء والموسيقى والرقص والدراما .

ولم يغرب عن بال نيتشه بأن يتكلم عن أبولو ، اله السلام والفراغ والطمأنينة والهجوع والانفعال الجمالي والتأمـل الفكري ، اله النظام المنطقـي والهدوء الفلسفي ، اله التصوير الزيتي والنحت والشعر الملحمي . وكان الفن اليوناني يتجسد في اتحاد المثلين الأعليين ـ اتحاد القوة الرجولية القلقة المتبرمة ، قوة ديونيس ، والجمال الانثوي الهادىء، جمال أبولو .

وكان ديونيس ملهم الجوقة في الدراما ، وأبولو ملهم الحوار ، وقد نمت الجوقة مباشرة من موكب المتعبدين لديونيس ذوي الألبسة الساطيرية ، أما الحوار فكان رأيا دبريا أو ذيلا تأمليا لخبرة انفعالية •

وكان أوضح ملمح من ملامح الدراما الاغريقية يتمثل في غلبة التشاؤم الديونيسية خلال الفن • فالاغريق لم يكونوا ذاك الشعب المنشرح الصدر والمتفائل والذي نصادفه في المختارات الأدبية الحديثة الموضوعة عنهم ، فهم قد عرفوا لسمات الحياة ولدغاتها معرفة وثيقة وأدركوا قصر أجلها المأساوي •

وعندما سأل ميداس سيلينوس : ما هو أفضل مصير للانسان ؟ أجابه سيلينوس : أيتها الذرية ذات المرحمة ليوم ، ويا أطفال المصادفات والحزن ، لماذا ترغمونني على قول ما هو من الافضل أن يترك غير مسموع ؟ ان أفضل جميع المصائر هو مصير لا يدرك ـ انه ألا يكون المرء قد ولد ، أما المصير الذي يليه وجوده فهو أن يموت المرء في سن مبكرة •

ويتضح من هذا القول أن ما ينبغي على مثل هؤلاء الناس أن يتعلموه من شوبنهور والهندوس كان قليلا • ولكن الاغريق تغلبوا على كآبة خيبة أملهم بروعة فنهم : فلقد أبدعوا من معاناتهم مشهد الدراما ، ووجدوا أن للعالم والوجود ، كما يبدوان ، ما يبررهما فقط من حيث كونهما ، كظاهرة جمالية ، وكموضوع للتأمل الفني وان الماجد هو الاخضاع الفني ، للمرعب •

زد على ذلك أن التشاؤم هو علامة من علامات الانحطاط ، أما التفاؤل فهو علامة من علامات السطحية ، لكن التفاؤل المأساوي هو حال الرجل القوي الذي يطلب الشدة وسعة الخبرة ، حتى ولو دفع ثمنها الويل والكرب ، ويبتهج اذ يجد أن الصراع هو قانون الحياة •

ويتابع نيتشه حديثه التحليلي فيقول : ان المأساة بالذات هي البرهان على أن اليونان لم يكونوا متشائمين • وأن الايام التي أنجبت هذه الحال فيها بالدراما الأخيلية وبالفلسفة ما قبل سقراط لهي أيام اليونان العظيمة الماجدة •

وسقراط ، نموذج الانسان النظري ، كان علامة

من علامات تراخ نسيج الخلق الاغريقي وانحلاله ، فقدرة الجسد الماروثونية العدمية ، هذه القــدرة المقدامة الشديدة قد ضحوا بالمزيد فالمزيد منها على مذبح تنوير ملتبس مبهم استلزم انحطاطا تدرجيا طرأ على القوى الجسدية والعقلية • ولقد حلت الفلسفة النقدية محل الشعر الفلسفي في عصور ما قبل سقراط ، وحل العلم محــل الفن ، والعقــل والغريزة والجدل محل الألعاب •

وبتأثير سقراط أصبح أفلاطون الرياضــي ، أفلاطون الجمالي ، وغدا أفلاطون الدرامــي ، أفلاطون المنطقي ، وعدو العاطفة والانفعال ،ومبعد الشعراء ونافيهم ، والمسيحي ما قبل المسيحية ، لقد أمسى ابستومولوجيا معرفيا • نقشوا على واجهة هيكل أبولو في دلفي هذه الكلمات المعبرة عن حكمة معدومة العاطفة والانفعال : فلتعرف نفسك ، ولا تغالي في أي شيء • وأمست هذه العبارات على أيد سقراط وأفلاطون الوهم بأن العقل هو الفضيلــة الوحيدة ، وغدت على يدي أرسطو تلك النظريــة الموهنة المضعفة ، نظرية الوسط الذهبي •

ويستطرد نيتشه فيقول : ان الأمة تبدع في طور شبابها الاسطورة والشعر ، وتنتج في مرحلة انحلالها

الفلسفة والمنطق · فلقد أنجبت اليونان في شبابها بهوميروس وآشيل ، وأعطتنا في طور انحلالها يوربيدو المنطقي المخروط دراميا ، والعقلاني المدمر للاسطورة والرمز ، والعاطفي الهادم للتشاؤم المأسوي في عصر الرجولة ، وصديق سقراط الذي استبدل الجوقة الديونيسية بحشد أبولوني من الجدليين والخطباء ·

ويبدو أن نيتشه حين بدأ ينقطع عن الجامعة ، راح يتنقل في أرجاء ايطاليا وسويسرا ، وكان في هذه الفترة من حياته قد تجاوز مرحلة التأثير المباشر بشوبنهور وفاجنر ، وبدأت فترة من التصنيف العقلي النقدي ، تجلى فيها تحرره بوضوح ، وبدأ فيها يوجه نقده الى كل مقومات العصر ، فظهر له كتاب « أمور انسانية ، انسانية الى أقصى حد » في جزئين بدأ الاول في سنة ١٨٧٦ ميلادية وانتهى من الثاني في سنة ١٨٧٩ ميلادية ·

وفي العام التالي ، وفي أجواء فينيسية متحررة ، كتب نيتشه « الفجر » ثم بدأت فترة من الانتاج الخصب ، ظهر له فيها « العلم المرح » سنة ١٨٨٢ ميلادية · و « هكذا تكلم زرادشت » سنة ١٨٨٣ ــ

١٨٨٥ ميلادية - و « بمعزل عن الخير والشر » سنة ١٨٨٥ ميلادية · و « أصل نشأة الاخلاق » عـام ١٨٨٧ ميلادية · وفي خلال كل ذلك ، كان يعد مواد كتابه الاكبر ، الذي كان ينوي فيه تدويـن خلاصة فلسفته بطريقة منهجية منظمة ، والذي لم تتح له فرصة تنسيقه واتمامه ، فنشر كما تركه ضمن مؤلفاته المختلفة ، وأعني به كتاب « ارادة القوة » عام ١٨٨٤ ـ ١٨٨٨ ميلادية · وحتى العام الأخير من حياته الواعية ، ظل نيتشه يؤلف بغزارة، فأخرج رسالتين عن فاجنر ، هما قضيـة فاجنر ، ونيتشه ضد فاجنر ، وانتهى عهده بالتاليف بكتاب « هو ذا الرجل » الذي تناول فيه كتاباته وذاتـه بالتحليل ·

وفي عام ١٨٧٢ ميلادية عاد نيتشه الى « بازل » وهو لا يزال ضعيفا من الناحية الجسمانية ، ولكن روحه كانت شعلة من الطموح والاشمئزاز من عمل القاء المحاضرات · ويشير نيتشه بالذات الى هذا فيقول : لدي من العمل ما يكفي لمدة خمسين عاما ، ويجب أن أشد النير الى عنق الزمن ·

لا شك أن قوة تفكير نيتشه وعبقريته الفذة قد

استهلكتاه قبل أوانه وأفقدتاه عقله النير فازداد هجومه الصاعق على الاشخاص والمفكرين والآراء. هاجم فاجنر والمسيح ... وكتب ذات مرة يقول : ان النمو في الحكمة يقاس ، بدقة ، بانخفـــاض المرارة .

وعلى هذه الصورة الحزينة ، والمأساة العقلانية أخذ نيتشه ينهار تحت وطأة (الجنون) جنــون الاضطهاد والعظمة والعسف ، فأرسل أحد مؤلفاته الى « تين » مصحوبا برسالة يؤكد فيها للناقد الكبير على أن مؤلفه هو أعظم كتاب ظهر على الاطلاق .

وفي عام ١٨٨٩ ميلادية وبينما كان نيتشه في مدينة « تورين » في شهر كانون الثاني داهمـــه الصرع والجنون بقـــوة ، فراح يدبج الرسائـــل المجنونة ، فكتب الى « كوسيما فاجنر » رسالة من ثلاث كلمات : أريادين انني أحبك . وكتب رسالة أطول الى « براندیس » ووقعها « بالمقلوب » وأرسل الى « بوركهارت » و « أوفريك » رسائل خيالية دعت « أوفريك » الى مساعدته بسرعة . وما كاد يحط الرحال في منزل نيتشه حتى وجده يضرب علـــى البيانو بكوعيـــه ويغنـــي ويصرخ . فحملـــوه الى

مستشفى للامراض العقلية . غير ان والدته حضرت بسرعة عندما بلغها الخبر وطالبت به لتضمه تحت رعايتها .

ولما توفيت والدة نيتشه عام ١٨٩٧ ميلادية كفلته أخته ونقلته الى منزلها في « فايمار » حيث قام « كرامر » بنحت تمثال له ، وشاهد نيتشه أخته ذات مرة تبكي وهي تنظر اليه بعطف وحنان، فبادرها سائلا : « اليصابات لماذا تبكين ، ألسنا سعيدين ؟ » . وسمع ذات مرة أحدهم يتحدث عن الكتب ، فأشرق وجهه الشاحب وقال : آه ! أنا ! أيضا قد كتبت بعض الكتب الجيدة .

وقضى نيتشه في منزل شقيقته « اليصابات » اثني عشر عاما بعيدا كل البعد عن عالم العقلاء ، الى أن مات في ٢٥ من شهر آب سنة ١٩٠٠ ميلادية .

ومن المؤسف أن يفسر جنون نيتشه ويستغل أبشع استغلال ، حيث نلاحظ أن بعض الذين عالجوا مصنفات هذا الفيلسوف الكبير زعموا أن مؤلفات نيتشه تتصف بصفة الجنون الذي انتابه في أواخر أيامه ، وأنها تجسد اللوثة العقلية التي رافقته بدرجات متنوعة ، وحسب العوارض التي كان يقع

تحت سيطرتها • ولكن التدقيق والبحث الموضوعي لأعمال نيتشه تنفي نفيا قاطعا هذه المزاعم الحاقدة، وكل ما في الامر هو أن خصائص نيتشه النفسية ، التي كانت تنعكس بوضوح على كتاباته ، كانت ذات طابع فريد •

وهنا لا بد لنا من الاستفسار بتجرد ونزاهة من من الكتاب والعباقرة لم يكن له طابع نفسي وعرفاني عقلاني فريد ومميز عن غيره من الناس ؟ ان العزلة القاتلة التي عاش فيها نيتشه قد صبغت أسلوبه بصبغة خاصة مميزة ، وشعوره بالوحدة قد أضفى على كتاباته نوعا من العظمة والترفع والتعالي ، غير أن هذا كله ليس جنونا على الاطلاق ، وما هو الا تعبير عن النمط النفسي الخاص الذي ينتمي اليه نيتشه ، وهو نمط مألوف بين العقلاء ، بل بين الكثيرين من أعمق العقلاء وأشدهم تفكيرا •

وفي الحقيقة والواقع كان المرض يؤثر دائما في نيتشه تأثيرا عكسيا ، أعني أنه كلما اشتدت عليه وطأة المرض ، كان يدعو الى انسانية سليمة صحيحة ، وكانت نغمة الصحة والقوة تزداد وضوحا في كتاباته • وربما كان هذا تعويضا ، ولكنه لا

يؤثر مطلقا في قوة الدعوة وروعة الهدف ذاته ٠

بل لقد كان نيتشه يحاول أن يدخل أمراضه ، حتى أكثرها ارتباطا بالناحية العضوية ، في عداد الظواهر الواعية ، ويدرجها ضمن عناصر حياته الشعورية ، فلا يلاحظ أن المرض سببا لاتجاهات معينة يتبعها في كتاباته ، بل نتيجة لهذه الاتجاهات٠

فاجنر ونيتشه :

في عام ١٨٦٨ ميلادية علم فاجنر وهو يقيم في « ليبتسج » بوجود أحد الشبان الالمان من المعجبين بموسيقاه ، والذي يحفظ العديد من مقطوعاته الجديدة ، فأظهر فاجنر رغبة ملحة لمقابلة هذا الشاب المتعصب لموسيقاه ٠ وفي أحد الأيام تقدم ذلك الشاب من فاجنر وصافحه ثم قدم نفسه باسم « فريدرش نيتشه » ٠

في تلك الأيام ، كان نيتشه في مطلع حياته الفكرية ، يسلك طريقه العقلاني بقوة ونشاط وهو في الرابعة والعشرين من عمره ، أما فاجنر ، فكان قد أصبح في نهاية حياته الموسيقية ، وجسد ذاته ، وعزف عن الثورة والعنف ، وفضل

الاستسلام والهدوء والطمأنينة بعد أن طار اسمه كموسيقي عظيم انتشرت ألحانه بين كافة الأوساط ٠

ويبدو من خلال الوقائع التاريخية أن التفاهم سرعان ما ساد بين الرجلين ، ولم تكن الموسيقى وحدها هي مصدر هذا التفاهم والانسجام ، انما قرب بين قلبيهما الاعجاب المشترك بأفكار الفيلسوف الكبير شوبنهور ، وبتحليله المنطقي الفني للحياة وللعالم ، وللوجود والموجودات ٠ وتقابل فاجنر مرة أخرى مع نيتشه في بلدة تريبشن في السنة التالية ، وتعددت مقابلاتهما في ذلك المكان الذي جعله فاجنر مهبطا لوحيه ٠ ولمس نيتشه أثناء هذه المقابلات أن فاجنر موسيقيا كبيرا جسد آراء شوبنهور النظرية وحققها عمليا ، ووقفت لديه الموسيقى مع الفكر جنبا الى جنب ، واجتمع الشعر والنغم في دراماته الموسيقية ، على نحو يشير اليه بما كان في « التراجيديا » اليونانية من فن متكامل ، وسرعان ما كتب نيتشه الى صديقه ارفين روده يقول : « ان ما أتعلمه وأراه وأسمعه وأعقله هنا شيء يفوق الوصف ٠ ولتصدقني اذا ذكرت لك ان شوبنهور وجيته ، واسخيلوس وبندار ، ما زالوا على قيد الحياة » ٠

وكذلك حاز نيتشه على اعجاب وتقدير فاجنر وزوجته كوزيما المتحمسة وتفوقه الثقافي وعلمه ، وأدرك فاجنر أنه بأمس الحاجة الى مثل هذه العبقرية الشابة المتحمسة ، التي بمقدورها أن تقدم أقوى الركائز لآرائه الفنية في ميدان الفلسفة والفكر • وهذا ما حدث في الواقع في بداية الامر : حيث نرى نيتشه يخرج كتابه الاول « ميلاد المأساة من روح الموسيقى » ، محاولا فيه أن يهتدي الى الرابطة بين الدراما الفاجنرية والمأساة الاغريقية، ويبشر فيه بنهضة متكاملة في الحياة الحديثة ، يؤدي فيها فن فاجنر وفلسفة شوبنهور الدور نفسه الذي أداه من اسخيلوس في حياة اليونان القديمة ، ويحلم بعصر تسوده الغريزة المنطلقة ، وتخفت فيه أضواء العقل الخالص ، الذي أضفى على حياة الانسان لونا كالحا •

ولما صدر كتاب نيتشه صادف الترحيب والاعجاب عند جماعة فاجنر ومريديه ، ولكنه لقي الاهمال من قبل الباحثين والنقاد الذين تجاهلوه ، ووصفه بعضهم بأنه ليس سوى مجموعة من الشخصيات الخرافية التي تصورها الأساطير اليونانية في شكل حيوان نصفه الأعلى شبيه بالانسان ونصفه الاسفل

شبيه بالحصان ، مشوه تـافه لا وحـدة فيه ولا انسجام ٠

ولقد صرح بذلك نيتشه في رسالته عام ١٨٧١ ميلادية الى صديقه روده حيث قال : أنا أخاف ألا يقرأ علماء اللغة ذلك الكتاب لما فيه من موسيقى ، وأن لا يطالعه الموسيقون لما فيه من علم لغة ، وألا يقرأه الفلاسفة لما فيه من موسيقى وعلم لغة !! ٠

ويلاحظ أن هذا الانسجام والتفاهم بين نيتشه وفاجنر لم يمض طويلا ، حتى جاءت القطيعة بينهما، وراح الناس يفسرون ماهية هذه القطيعة وأسبابها، وما الذي جعل كل منهما يتعصب لرأيه الخاص ، ظانا أنه قد جاء بالتفسير الأوحد ٠

ويرى الدكتور فؤاد زكريا (١) أنه لا يستبعد اذ كنا بصدد شخصية معقدة كشخصية نيتشه ، أن يكون لكل هذه التعليلات نصيـب من الصحـة ٠ ويضيف : « وأغرب هذه التعليلات ، هو التعليل النفسي ٠ فقد تبين في نهاية الامر ، وفي الوقـت الذي وقف فيه نيتشه على حافة الجنون ، أنه كان

---

(١) الدكتور فؤاد زكريا : نيتشه : ص ٢٨ ، ٢٩ ٠

يحب كوزيما زوجة فاجنر ، وتصور أنها هي أريان، وهوديونيزوس ، في الأسطورة اليونانية ، وكتب اليها : أريان ، انني أحبك ! ولم تكن اشارته الرمزية في كتبه السابقة عن أريان وديونيزوس مفهومة من قبل ، ولكنه حين أفلت منه زمام عقله الواعي ، وكشف عن هذا الحب الصامت القديم ، قد أوضح معنى تلك الاشارات على نحو لا يدع مجالا للشك في أن حبه لكوزيما قد لعب دورا هاما في حياته النفسية • فاذا أضفنا الى ذلك قوة النزعة الذاتية لدى نيتشه ، وهي النزعة التي تجعله يحكم على العالم وعلى الآخرين تبعا لشعوره الخاص نحوهم ، لوجدنا أنه ليس من المستبعد على الاطلاق أن تكون كراهيته التالية لفاجنر تعبيرا غير مباشر عن حبه لزوجته ، أو احساسا منه ــ كما صرح في بعض الاحيان ــ بأن فاجنر لا يستحق هذه المرأة التي لم يصادف بين النساء من تعادلها ذكاء وجرأة • ليس لنا اذن أن نرفض هذا التعليل ، اذ تنهض به في كتابات نيتشه ذاتها شواهد قاطعة • ولكن ليس لنا في نفس الوقت أن نعده التعليل الوحيد ، فقد كان لا بد من عوامل أخرى تتضافر مع عامل التطلع الخفي الى كوزيما ، لتؤدي بنيتشه الى حملته العنيفة

على فاجنر ، وكان لا بد من مبررات عقلية أخرى، يستطيع أن يصرح بها على الاقل ، أو يستطيع أن يبرر بها لعقله الواعي هذا التغير الذي طرأ على شعوره نحو فاجنر • فلنمض اذن في بحثنا ملتمسين تعليلات أخرى لهذه القطيعة •

في الوقت الذي وصل فيه فاجنر الى قمة المجد ، ونجح في بناء مدينة موسيقية كاملة على النحو الذي تخيله طيلة حياته في بايرويت ، وبدأ يحقق من المشروعات ما كان يبدو له قبل ذلك خيالا واهما ، كتب نيتشه في الجزء الرابع من كتابه « خواطر في غير أوانها » ، مقالا لخص فيه كل ما كان يجذبه الى فاجنر من قبل ، وهو مقال « رتشارد فاجنر في بايرويت » • والحق أن أحدا لم يمدح فاجنر ولم يمجده مثلما فعل نيتشه في هذا المقال ، ويبدو أن نيتشه كان ينبه فيه فاجنر الى ما كان ينتظره منه : فقد كان ينتظر تقدما شاملا واصلاحا عاما في كل أوجه الحياة البشرية ، من أخلاق وسياسة وعلاقات اجتماعية ، اذ أن المسرح صورة مصغرة للمجتمع بمختلف مجالاته ، وفيه تقدم لمشكلة الحياة حلول لو أحسن اختيارها لكان أثرها على الانسانية كلها عظيما • وهكذا تستطيع بايرويت أن تعيد لنا عهد

الأولمب ، ويستطيع العبقري الذي شادها أن يخاطبنا بلغة شاملة لا توجه الى جماعة أو شعب معين ، بل الى البشرية كلها ... على هذا النحو سار نيتشه في مؤلفه هذا عن فاجنر » .

ويتساءل الدكتور زكريا بعد هذا العرض فيقول (١) : « ولكن هل كان هذا كله مدحا فحسب ؟ الحق أنه ، كما قلنا ، تعبير عما يتوقعه نيتشه من فاجنر ، لا عما قام به فاجنر بالفعل . والدليل على ذلك أنه في نفس الوقت الذي كان فيه فاجنر يحتفل بأعياد بايرويت الأولى ، كان نيتشه قد انطفأت حماسته وتبخر اعجابه .

ذلك لأن نيتشه حين اهتدى الى ذاته ، وعرف الطريق الذي يتعين عليه أن يسلكه ، ادرك أن فاجنر عاجز تماما عن أن يقدم الى البشرية شيئا مما يريد هو . لقد كان نيتشه يريد انقلابا في الأخلاق ، وفي الفكر ، وفي الفن ، وفي كل ما يقدسه الانسان الحديث من قيم . فأين فاجنر من كل هذا ؟ لقد شاهد نيتشه بعض حفلات بايرويت . فلم يجد

---

(١) الدكتور زكريا : نيتشه ص ٢٩ ، ٣٠ .

الا مسرحا ذا جدران أربعة ، وستارا يفتح من الجانبين ، وعازفين مختفين ، وموسيقى ممتزجة بالشعر ، وهذه كلها تجديدات فنية لا شك فيها ، ولكن أتبدأ من هنا نهضة الانسان الحديث كما ارادها نيتشه ؟ وأين هم رهبان الفكر الذين كان نيتشه يتصور أنهم سيفدون خاشعين الى محراب الفن ؟ أين ذلك الصمت المقدس الذي طالما حلم به ، من تلك الجلبة والضوضاء وذلك الغدو والرواح ؟ أين بخور معبد الفن من رائحة الخمر والدخان وعطور النساء التي حفل بها مسرح بايرويت ؟ لقد انتهى نيتشه من زياراته لبايرويت بنتيجة واحدة ، هي أن من المحال أن تشع شمس الاصلاح من ذلك الأولمب الزائف ، أو أن تبعث الحضارة الديونيزية من بعد حفل لاه كذلك الذي وضع فيه فاجنر كل آماله ! ومنذ هذه اللحظة ، يئس تماما من أي اصلاح يأتي عن طريق فاجنر ٠

وهكذا أصبح الطريق ممهدا للانفصال التام ٠ ولم يبق الا أن يعلم نيتشه أن فاجنر ليس عاجزا عن بلوغ هدفه الاصلاحي فحسب ، بل انه يسعى الى هدف مضاد له ٠ وهذا ما أدركه نيتشه أخيرا : فقد تقابلا بعد بايرويت عدة مرات ، الى أن كان

يوم تريضا فيه معا على الساحل في سورنتو بايطاليا، وأخذ فاجنر يشرح له أهم الموضوعات التي تشغل ذهنه في ذلك الحين ، وهي الدراما الموسيقية الجديدة « بارسيفال » ، فاذا بها عمل يقدمه فاجنر الى الكنيسة راجيا منها المغفرة والصفح في نهاية حياته ، واذا به يقول انه يجد في فكرتها هذه لذة لا يجدها في أعماله السابقة التي كان بعضها يصطبغ بصبغة الالحاد • وتبينت الحقيقة لنيتشه بوضوح: فها هو ذا فاجنر يظهر أمامه تائبا مكفرا ، يردد آلام المسيح وعذابه ، ويركع تحت الصليب ، في الوقت الذي أراده فيه ثائرا يمجد الحياة ويقلب القيم • بل ان في الامر شيئا أخطر من مجرد كون فاجنر مسيحيا ، اذ أن نيتشه على كل حال يحترم المسيحي المخلص ، ولكن الذي آلمه أن يجد فاجنر قد انقلب وتدهور الى هذا الحد • وعلى أية حال فقد ظل نيتشه صامتا في ذلك اليوم ، وحين انتهى فاجنر من حديثه ، خطا نيتشه بعيدا عنه ، وانصرف دون أن يجيب ، ولم يره بعد ذلك أبدا » •

مؤلفات نيتشه :

١ ـ كتاب ميلاد المأساة من روح الموسيقى •

٢ ـ خواطر في غير أوانها ٠

٣ ـ أمور انسانية، انسانية الى أقصى حد في مجلدين ٠

٤ ـ كتاب الفجر ٠

٥ ـ كتاب العلم المرح ٠

٦ ـ هكذا تكلم زرادشت ٠

٧ ـ بمعزل عن الخير والشر ٠

٨ ـ أصل نشأة الأخلاق ٠

٩ ـ ارادة القوة ٠

١٠ ـ أفول الأصنام ٠

١١ ـ عدو المسيح ٠

١٢ ـ قضية فاجنر ٠

١٣ ـ نيتشه ضد فاجنر ٠

١٤ ـ هو ذا الرجل ٠

فلسفة نيتشه :

من المؤكد أن نيتشه لم يكن صاحب مذهب فلسفي معين كغيره من الفلاسفة ، بل نراه يعلنها

حربا شعواء لا هوادة فيها على أصحاب المذاهب الفلسفية الذين ينظرون الى العالم نظرة جامدة متحجرة ، لا يريدون أن يتقلقلوا خطوة واحدة عن المواضع التي وقفوا عندها • لأن الحركة برأيهم تتعب الذهن ، وتوقف نشاطه ، وتزيد المسؤولية التي لا يمكن لتلك العقول حملها لأنها تنهد الى الراحة والاطمئنان •

من هنا نستطيع أن نستنتج بأن نيتشه كان يصر على وجوب الانطلاق ، ويبشر بلزوم تجنب الجمود الفكري ، ليترك المجال رحبا للتطور والانطلاق والتجديد مسايرة لركب الحياة في نموها التصاعدي • ولا غرو فان فلسفة نيتشه كانت تجسيدا لحياته وواقعه ، وتفاعلاته العقلانية الذاتية ، ونابعة من نفسه ووجدانه غير متأثرة بأي عنصر خارجي ، نامية ومنسجمة مع تفاعلات الحياة ، وخاضعة لتطورها نحو الافضل والامثل •

ومن الملاحظ أن نيتشه قد بشر خلال وجوده في هذا العالم كانسان فاعل في المجتمع البشري بضرورة ابعاد الفكر عن الجمود والتحجر ، وبضرورة جعل المجال مفتوحا لمزيد من التجدد والتطور الذي

يساير الحياة في تقدمها التصاعدي •

وربما نستفسر عن ماهية الحياة المتطورة لدى نيتشه ؟ حيث نلمس بأنها عقلانية بحتة ، خلت من التجارب المثيرة ، وانما المثير فيها آراء فقط • لهذا نرى أن فلسفة نيتشه تخضع لسلوكه الحياتــي ، وانفعالاته الذاتية ، ومنطقها العقلاني الباطني ، ما دام المنطلق العرفاني عند نيتشه صلبا متماسكا، لا يمكن أن ينفذ اليه من الظاهر ما يؤثر فيه •

والمعروف لدى المهتمين بالدراسات الفلسفية أن نيتشه كان فيلسوفا حرا متناقضا ، لا يعير المنطق أو النظام أي اهتمام ، يدعو الى تبديل المنظور الذي يحل كل مشكلة ، عن طريق الثورة الجامحة التي تفجر القديم بما يحمله في طياته من جمود وتقوقع، الى التجديد والتطور في كافة المفاهيم والمجالات ، انسجاما مع سنة الحياة المتقدمة •

ويقسم تفكير نيتشه الى مراحل ثلاث :

١ ــ المرحلة الفنية الرومانتيكية ، التي تمتد من سنة ١٨٦٩ ميلادية الى سنة ١٨٧٦ ميلادية وهي المرحلة التي كان فيها واقعا تحت تأثير شوبنهور

وفاجنر ، وتنتهي بتخلصه منهما ٠

٢ ــ المرحلة الوضعية النقدية ، وتمتد من سنة ١٨٧٦ ميلادية الى سنة ١٨٨٢ ميلادية ، وفيها تميز تفكير نيتشه بالتأثر بالمنهج العلمي ، بعد أن تخلص من المؤثرات الرومانتيكية السابقة ، وتلك هي المرحلة التي حرص فيها نيتشه على أن يوجه أعنف نقد الى مقومات الحياة الانسانية في العصر الحديث ٠

٣ ــ المرحلة الصوفية الخالصة ، تبدأ من كتاب زرادشت في عام ١٨٨٣ ميلادية ، وتستمر حتى عام ١٨٨٨ ميلادية،وفيها يتميز تفكير نيتشه بالاستقلال التام ، ويسير في طريقه الخاص ، ويتخذ أسلوبه شكل التدفق الصوفي ، لا التحليل النقدي ٠

ويتجه نيتشه في هذه الفترات اتجاها عاما واحدا ، وهو الاتجاه الى نقد المعقولية التجريدية ، وتمجيد الحياة واعلائها ، والتعلق بالطبيعةوالحياة الأرضية ٠ في هذا الاتجاه تتجسد وحدة شخصية نيتشه ، التي رافقته كظله طوال مراحل تفكيره ٠ وهذا لا يعني تعلقه بهذه المباديء تعلقا متحجرا بل انها اتخذت أشكالا وصورا متباينة ، فعبرت عن

ـفسها بأساليب متنوعة ، مما ينفي عن نيتشه تماما
صفة « المذهبية » بمعناها التقليدي الجامد ، الا
أنها تظل مختفية خلف ما اتخذته من مظاهر متعددة،
مما يدل دلالة لا شك فيها على أن الذهن الذي يفكر
هو واحد ، وان لشخصيته عناصرها الأساسية ،
بنفس الوقت ينفي عنه تلك السخافات التي حاول
ن يلصقها به هواة التفكير الشعري الخيالي
سخافات التناقض الصريح ، والجموح الدائم ،
الانتقال المتواصل بين الاضداد ، وهذا يعني
تناقض في الافكار والآراء .

وليس من شك أن نيتشه كان يهدف من وراء فلسفته وأفكاره الى انقلاب شامل في القيم يقوم على أسس ثورية عقلية وعلمية تبدل الاوضاع السائدة في وقته وقبل وقته التي يحيا عليها الناس تبدلا شاملا ، سواء في المجال الفكري أو في المجال الاجتماعي ، على أسس من الخلق والابداع وازاحة كل ما يتعرض فاعلية الانسان من عقبات وكوابيس تحد من حيويته وفعاليته .

والحياة بمعناها الصحيح عند نيتشه هي التي تتصرف في ايجاد كل القيم لأنها أصل القيم العقلية

والاخلاقية ، والمبدأ الكامن خلف كل معرفة وكل سلوك انساني ·

نيتشه والواقعية :

الواقعية ، كما يراها نيتشه ، فكرة تعبر عن الوجود المستقل عن المعرفة التي تعرف بها الذوات المدركة ، فهي لا تستمد من هذا الادراك ، ولا تعبر عنه تعبيرا شاملا بالفكر ، لوجود شيئا فيه يتجاوز الفكر · فاذا استنتجنا من هذا القول الذي ينطبق على مجال المعرفة ، نتائجه الاخلاقية ، نلاحظ أن الأخلاق الواقعية ستكون متعلقة بهذه الارض ، وقد نتخلى عن كل تطرف مثالي يربط الاخلاق بعالم آخر ، بالمعنى الماورائي أو المثالي لهذه الكلمة ·

واذا كانت الواقعية عند نيتشه تقترب من آراءه وأفكاره في الاخلاق ، فقد كانت بعيدة عنه كل البعد في ميدان المعرفة · فهو ينقد الواقعيين لاعتقادهم بأن العالم كما يظهر لنا هو العالم الحقيقي،وأن العالم في ذاته لا يختلف عما نراه(١) · ومما لا شك فيه أن نظرية نيتشه حول المعرفة تجمع

---

(١) نيتشه : العلم المرح ف ٥٧ ·

عناصر مثالية ، عندما يؤكد أن العالم كما نتصوره هو العالم كما يصلح لوجودنا فحسب ، لا كما هو في ذاته • ولا شك أن هذا الرأي في المعرفة يباعد بينه وبين الواقعيين ويجعل فلسفته تختلف عن أفكارهم اختلافا أساسيا •

نيتشه والوضعية :

الوضعية تجسد آراء مجموعة خاصة من المفكرين، تأثروا بالتقدم الذي أحرزه المنطق والرياضة في نصف القرن التاسع عشر ، فحاولوا أن يوحدوا بين أسس المنطق والرياضة، ويجعلوا منها دعامة لتحليل فلسفي يقضي على المشاكل الميتافيزيقية من جذورها • فالوضعية المنطقية ، تشترك مع وضعية « أوجست كنت » في أنها تستلهم العلم في كل مراحلها ، وتتأثر في نقطة انطلاقها بالتقدم الذي تحرزه علوم معينة ، فتحاول اصطناع مناهجها وتعميمها على التفكير الفلسفي ذاته (١) •

ويبدو أن نيتشه بالذات قد تأثر بالتقدم العلمي ، حيث أطلق على فترة من فترات تفكيره

---

(١) زكريا : نيتشه ص ٤٠ •

الفلسفي « الفترة الوضعية » • ولم يكن اعجابه بالمنهج العلمي التجريبي يقتصر على هذه المرحلة الوسطى من مراحل تفكيره ، كونه حاول أن يضع في الفترة الاخيرة لفكرة العود الابدي أساسا علميا ، وكان يرى أن يكرس عشر سنوات من حياته لدراسة العلم الطبيعي والرياضي ، حتى يمكنه أن يبرر الفكرة علميا ، ولكن صحته لم تساعده على ذلك • ولكن كان يبدي اعجابه بالمنهج العلمي التجريبي ، فيقول : « انني لأعجب بذلك الشك الذي يجعلني أجيب عنه بقولي : فلنجرب ذلك ! ولست أريد أن أسمع شيئا عن كل الامور والمشاكل التي لا تسمح باجراء التجربة عليها • تلك هي حدود معنى الحقيقة في نظري ، وهنا تفقد الشجاعة كل مبرر لها (١) » ، وهكذا يقر نيتشه بمبدأ التحقيق التجريبي الذي أصبح فيما بعد أساسا للوضعية ، ولا يرى للشجاعة التي تحاول تعدي نطاق التجربة أي مسوغ •

البرجماتية ونيتشه :

ان نقد الأسس الميتافيزيقية القديمة،والاتجاه

---

(١) نيتشه : العلم المرح • فقرة ٥١ •

نحو العينية ، ونقد فكرة الجوهر القديمة ،واخضاع القيم للوجود ، من الافكار العقلانية التي قال بها نيتشه في نظرية الحقيقة ، وهي تنسجم مع النظرية البرجماتية التي لخصها « جان فال » بقوله : « ان المرء يحكم على الشيء بأنه حقيقي ، ويكـون في مسلكه سائرا في الاتجاه الصحيح ، حينما يقول أو يفعل ـ بازاء موقف خارجي ما ـ شيئا لا يتعارض مع ذلك الموقف ، ويكون بينه وبين الموقف صلـة معينة · فغياب البطلان والزيف ، ووجود علاقة معينة مع الشيء ، قوام الحقيقة » · فالحقيقة من خلق الانسان ، ومقياس صحة الافكار هو نفعها أو صلاحيتها للعمل ، ومن هنا تغيرت الحقائق بتغير المواقف وما يصلح لكل منها · واختفـت الحقيقة الثابتة ·

ويلاحظ أن نيتشه يتحمس في أفكاره وكتاباته للدفاع عن الحقيقة النسبية ، ويؤكد أن الحقيقة هي ما ينفع الحياة ، بل هي خطأ وبطلان ثبت نفعه ، وبأن الحياة هي أساس الحقيقة ومصدرها الوحيد ، ومن هنا يتضح لنا التشابه والانسجام بـين آراء نيتشه وبين البرجماتية · الى حد مهاجمـة العلم واتخاذ منهج غير علمي تماما · وفي هذا ما يباعد

بينهم وبين نيتشه الذي كان يحترم العلم ويقدره• ولم يكن نقده للنزعة العقلية التجريدية ، الا لتمسكه بالروح العلمية الصحيحة ، التي ترفض أن تجعل من المجردات الخالصة أساسا لفهم الواقع الحي المتبدل •

الوجودية ونيتشه :

يعتقد أصحاب الفلسفة الوجودية أن تفكير نيتشه الفلسفي ينسجم مع أفكارهم الوجودية ، لذلك عدوه من أتباع مذهبهم لمرونة أسلوبه وارتباط حياته الشديد مع تفكيره ، باعتبار أن من أسس التفكير الوجودي ، تأكيده تجدد الوجود الانساني • اذ ليس للانسان بنظرهم ماهية ثابتة ، بل ان وجوده سابق على ماهيته ، أو هو الذي يكون ماهيته ، وليست له أية ماهية ثابتة تتحدد مقدما • ويكاد نيتشه يعبر عن هذه الفكرة ذاتها حين يقول بأن الانسان في محاولة دائمة لا تعرف الاستقرار ، فهو لا يرضى بشيء ، ولا يقف عند حد • والانسان ، بمفهومه هو الحيوان الذي لم يثبت بعد ، وهو الحيوان الذي لم يصنف أو يحدد نوعه ، لأن فيه شيء أساسي ناقص • وبرغم ذلك،

فان هذا النقص هو ما يعلي من قدر الانسان • فعدم تحدد ماهيته هو الذي مكنه من أن يجدد وجوده على الدوام • وعرف الانسان في كتابه زرادشت بأنه خالق ذاته ، أي أن هذا النقص الأساسي هو مصدر حريته ، وهو الذي يمكنه من تجديد ذاته وخلقها على الدوام •

واذا حاولنا تفسير أفكار نيتشه الاساسية حول ارادة القوة ، باعتبارها مظهرا من مظاهر هذا المبدأ العام الذي تميزت الوجودية بالفات النظر اليه ، أعني أن الانسان كائن يتجاوز ماهيته على الدوام ولا يقف بها عند حد • علمنا الى أي مدى تنسجم الافكار الوجودية مع آراء نيتشه وأفكاره في هذا الحقل الانساني •

الأخلاق عند نيتشه :

من الواضح أن نيتشه مفكر أخلاقي كبير ترك آثارا قيمة في مجال الاخلاق تدل على مدى جرأته النادرة واصالته الاخلاقية العريقة المنبثقة من الدوافع الانسانية التي تتفاعل في أعماق نفسه التواقة الى المعرفة والسمو والارتقاء •

ونلمس في كتابات نيتشه الاخلاقية حملة شعواء مركزة على الاخلاق لتناقضها الظاهري ولتحللها من القيم والمباديء الاخلاقية • ونراه يقف من القيم الاخلاقية موقف الناقد الحصيف فيطالب باعادة النظر من جديد بكافة القيم السائدة لأنها لم تعد صالحة في اتجاهها العام ، ولا تفي بمطالب الانسان الحديث لأنها قديمة بالية في مبادئها العامة ، أو تفصيلاتها الخاصة ، ولم يعد لها التأثير الفعال على توجيه الانسان نحو المثل العليا السليمة •

ويرى نيتشه بعد أن تمعن في دراسة النظم الأخلاقية في الأمم المختلفة وخرج من دراسته بأن هناك أخلاق للسادة وأخلاق للعبيد تتناوبان في السيادة • لذلك فان أحكام القيم الاخلاقية اما أن تنشأ عن نوع من السادة ، الذين يجدون لذة في التميز عن المسودين ، أو تنشأ عن المسودين ، عن العبيد والتابعين من مختلف الانواع •

ففي الحالة الأولى ، عندما يكون السادة هم الذين يحددون معنى تصور « الخير » تكون الاحوال السامية المترفعة للنفس هي التي تمد فصلا ، وهي التي تحدد التفاوت في المراتب • ويبتعد الرجل

الرفيع عن أولئك الذين تتمثل لديهم صفات مضادة لأحوال النفس السامية هذه ، ويحتقرهم .

ويلاحظ نيتشه استنادا على ما ذهب اليه بأن التقابل بين الحسن والرديء يعادل في هذا النوع الأول من الاخلاق ، التقابل بين الرفيع والحقير . أما التقابل الآخر بين الخير والشر فله أصل آخر . فهنا يحتقر الجبان ، والقلــق والمتصاغر ، وذلك الذي لا يخرج تفكيره عن حدود المنفعة ، وكذلــك يحتقر المرتاب ، بنظرته المقيدة ، وذلك الذي يحقر من شأن ذاته ، وذلك النوع من الناس ، الذي يقبل أن يعامله الغير معاملة الكلاب ، والمنافق المستجدي، وقبل هؤلاء جميعا الكاذب : ذلك لأن المعتقــدات الاساسية لكل الارستقراطيين ، أن عامة النـــاس كاذبون . ولقد كان النبــلاء في يونان القديمــة يسمون أنفسهم « نحن أهل الصدق » .

ومن الجلي أن التقويمات الاخلاقية كانت في مبدأ الامر تطلق على الاشخاص ، ولم تطلق على أنواع السلوك ، وترد اليها الا فيما بعد . وعلى العموم نرى نيتشــه يضـــع للتــاريخ الاخلاقــي للانسانية تقسيما جديدا .

ففي العصر اليوناني والروماني يقول بسيادة أخلاق السادة ، وتكون الغلبة للأقوياء ، ثم تنتصر أخلاق العبيد على يد اليهودية والمسيحية ،ويقهرون الارستقراطيــة الرومانيــة ، ويســود الضعفــاء والمتخاذلون . فالتقابل الاخلاقي الرئيسي هو ذلك التقابل بين روما وجوديا . وبينما كانت جوديا في نظر روما تعبيرا عن كل ما هو مضاد للطبيعة ، فقد كانت روما في نظر جوديا موضوعا للحقد والحسد الذي يمتلك الضعفاء بازاء الاقوياء (١) .

وفي عصر النهضة الأوروبية تعود أخلاق السادة بالرجوع الى المثل العليا اليونانية ، ولكن تقهرها الاصلاح الديني ، وهي حركــة شعبيــة أثارهــا الضعفاء والعوام . وتعود أخلاق السادة عند النبلاء في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ليقهرهم العبيد مرة أخرى في عهد الثورة الفرنسية .وتظهر أخلاق السادة في الأفق على يد نابليون ، ولكــن سرعان ما تعود أخلاق العبيد بعده الى الظهور . على أن كل هــذه الفترات ، التــي تلت ظهــور المسيحية ، تتميز بأنها في أساسها فترات تسودهــا

(١) نيتشه : أصل نشأة الاخلاق جـ ١ فقرة ١٦ .

أخلاق العبيد ، وما ظهرت أخلاق السادة فيهـا الا عرضا ، لتختفي سريعا ، تاركة خلفها التيار الاصلي الواهن يسير في ضعف وانحلال .

ونيتشه كما يبدو من تفكيره الاخلاقي قدم أكثر أفكاره جرأة وأصالة ، وتعرض لأقوى الانتقادات والحملات . ولم تكن القوة الدافعة له طوال مراحل تفكيره ، وطوال مراحل صراعه مع عصره ونقده له ، الا قوة أخلاقية دافعة شافية من كافة الامراض التي تسللـت الى المجتمعـات على مـر العصـور والدهور .

ومن الطبيعي أن يجعل نيتشه للاخلاق أهمية قصوى ، ويرجع اليها ظواهر عديدة لا تنتمي الى مجالها الرحب ، ويوجـه أعنـف الانتقـادات الى الاخلاق . ويعتبر الدوافع الانسانية ترجع بالفعل الى جذور أخلاقية . ومن هذا القبيل ، دافع المعرفة ، حيث نريد أن نعرف لكي نكتسب مزيدا من القدرة على السلوك في الحياة ، ولكي تزداد سيطرتنا على الاشياء ، تلك كلها أمور تدخل في باب الفعل العملي لا الفكر النظري . فأصل البحث عن المعرفة هو أخلاقي ، وتفكيرنا ليس الا وسيلة نتمكن بها من

زيادة قدرتنا على « السلوك » في العالم ، والسعي الى بلوغ الحقيقة ليس له من معنى الا عدم الرغبة في الخداع ، ولا في خداع ذاتي ، وهذا يتصل بمجال الأخلاق ٠

ولما كان مجال الاخلاق أفسح المجالات وأشملها ، وهو ينطوي في داخله على مجالات أخرى تبدو بعيدة عنه ، وتدعي أنها فقدت صلتها به ، باعتبارها نظرية خالصة لا شأن لها بطريقة السلوك العملي ٠ كان أبلغ دليل على مدى اهتمام نيتشه بالأخلاق ، ونظرته اليها على أنها أشمل مظاهر الفاعلية الانسانية وأعمقها ٠

وفي الوقت الذي نلمس فيه هذا الاهتمام النتشوي بالأخلاق ، نلاحظ في كتاباته أقزع وأعنف الحملات على الاخلاق ، وقد تكون هذه الحملات أشرس ما تعرضت له الاخلاق طوال تاريخ الفكر الانساني الواعي ٠ ولا يحرص نيتشه في أبحاثه الاخلاقية على أن يقف من القيم الاخلاقية موقف سائر أبناء البشر ، انما يتخذ موقف الناقد الاخلاقي المحص الذي لا يعترف أصلا بالقيم الاخلاقية السائدة ، ويحاول تقويمها من جديد ٠

ونيتشه بدوره لا يعترف بالخير ، ولا يقــوم بالأفعال الشريرة ، وانما يجد له موقفا يخرج عن نطاق تلك القيم الشائعة ، وينظر اليها من الخارج فحسب • وتلك في مفهوم نيتشه هي صفة الناقد الصحيح : اذ لا يجب عليه أن يصدر حكمه من خلال أية قيمة أخلاقية سائدة ، وانما يهدف الى أن يضع هذه القيم ذاتها موضع الشك ، ويتأملها كما لو كان مشاهدا محايدا يختبرها من بداية الامر ليقرر مدى صلاحيتها •

ولنستمع اليه وهو يعبر عما يختلج في أعماقه حول القيم الاخلاقية السائدة في عصره : « فلكي يتسنى لنا أن نتأمل أخلاقنا الأوروبية من بعيد ، ونقارنها بنظم أخلاقية أخرى ، سابقة أو تالية ، علينا أن نفعل ما يفعله السائح الذي يريد أن يعرف مدى ارتفاع أبراج مدينة : فهو عندئذ يغــادر المدينة • فالتفكير في الاحكام الاخلاقية المتحيزة ، ان لم يشأ أن يكون حكما متحيزا يصدر على أحكام متحيزة ، هذا التفكير يقتضي اتخاذ موقف خارج عن الاخلاق ، بمعزل عن الخير والشر (١) » •

(١) نيتشه : العلم والمرح فقرة ٣٨٠ •

واذا كانت الروح الموضوعية هي التي أملت على نيتشه اتخاذ هذا المنهج ، واذ كان يبدأ باتخاذ الشك والتساؤل سبيلا للعمق في فهم طبيعة الموضوع الذي يعرض له ـ شأنه شأن كل باحث يتصف بالروح العلمية النزيهة المجردة ـ فان لنا مع ذلك أن نتساءل عن مدى امكان تحقق الموضوعية والنزاهة في مثل هذا المجال . ذلك لأن الامر ليس متعلقا بظاهرة طبيعية يمكننا أن نتأملها تأملا محايدا ، وانما هو متعلق بقيم كامنة تتدخل في أحكامنا دون أن نملك لها دفعا . فالموضوعية في هذا المجال شرط عسير التحقق كما يقول الدكتور زكريا (١) بل يكاد يكون مستحيلا . ومحاولة خروج الانسان عن القيم الاخلاقية السائدة في عصره خروجا تاما ، هو أشبه بمحاولته الخروج عن الرمزية اللغوية السائدة . والعودة الى أساليب الاشارة اليدوية والرسم على الحجر في التعبير . فتلك القيم كامنة فينا أكثر مما نشعر ، وربما كانت كل محاولة نبذلها للخروج عن نطاقها ، تتم من خلالها هي ذاتها . على أننا لا نود أن نستطرد طويلا في هذا الاعتراض الذي يتناول مدى امكان

---

(١) نيتشه : الدكتور فؤاد زكريا ص ٨٤ .

تحقيق مثل هذا الهدف الذي وضعه نيتشه لنفسه ، وحسبنا هنا أن نشير الى صعوبة المحاولة التي قام بها ، وهي الصعوبة التي تفسر لنا ذلك الاحساس الذي يتملك من يطالع كتاباته ـ يعني الاحساس بأنه يتاضل ويصارع خصما قويا عنيدا ـ وما هذا الخصم الا تأصل القيم الاخلاقية السائدة في نفسه وفي نفس كل مخلوق انساني ·

ويخلص نيتشه من تحليله للاخلاق الى اعـلان الثورة على الاوضاع الاخلاقية السائدة والعمل على قلب أسسها الواهية لقصورها عن المباديء الاساسية للسلوك الانساني ، وذلك من أجل ايجاد انسانية أفضل وأرقى ·

نيتشه وفلسفته الاجتماعية :

في الوقت الذي انطلقت فيه أفكار نيتشـه في أجواء أوروبا كانت الآراء الاشتراكية تحاول وضع قدمها على التربة الأوروبية ، مما حدا بنيتشه الى التصدي لتلك الآراء ونقدها وتحليلها ، فذهب الى أن الاشتراكية التي تزعم بأنها تحاول اصلاح اناس ليسوا في حاجة الى هذا الاصلاح · وما زعمهم بأنهم

ينهدون الى اصلاح الطبقات الدنيا الا نوعا من أنواع الحقد الأرعن ، والتطلع الى ما في أيدي الغير ، والعدالة في رأي نيتشه هي أن يفيض من يملك على من لا يملك • وهي الطريقة الوحيدة التي تقوم على العدالة الاجتماعية الحقة ، بالاضافة الى وجوب منح حق المساواة للجميع ، أما أن يطالب الآخرون بالمساواة ، كما هو الحال في الاشتراكية المعروفة ، اشتراكية الطبقات المكبوتة ، فهو في الحقيقة حقد وطمع وحسد •

ويلح نيتشه على الطبقة الحاكمة لوجوب تحقيق المساواة والعدالة بين كافة الطبقات • وترك الطبقات الدنيا وشأنها حتى لا تنظر الى ما فوقها ، وتنتبه الى بؤسها اذا رفعنا مستواها • وفي رأي نيتشه تحقيق الاشتراكية يؤدي الى خلق انسانية خاملة • فالاشتراكيون يتوقون الى أن يكفلوا حياة هانئة لأكبر عدد ممكن من الناس • ولو تحقق ذلك بالفعل في مقر دائم للحياة الهانئة ، أعني في الدولة الفاضلة ، لقضى ذلك العيش الهانيء على التربة التي تنبت فيها العقول الكبيرة ، والافراد العظام بوجه عام ــ وأعني بهذه التربة ــ الفاعلية الزائدة •

فعندما تتحقق تلك الدولـة ، تكون الانسانية قد أصبحت أكثر خمولا من أن تنجب العبقرية(١)٠ وينهي نيتشه من نقده للافكار الاشتراكية الى أن التدخل المتزايد للدولة يقضي على كل أمـل في خلق أفراد ممتازين ، ويصبغ الكل بصبغة متماثلة متجانسة لا تمايز فيها ولا تنوع ٠

نيتشه ومشكلة المرأة :

ينطلق نيتشه في هجومه الصاعق على المرأة من كلمته المشهورة : « أذاهب أنت الى المرأة ؟ لا تنس اذن سوطك ! » ولكن ، لا بد لنا قبل أن نعـرض تفاصيل الهجوم الصاعق الذي وجهه نيتشه الى المرأة ، أن نفسر كيفية علاقـة هـذا الفيلسوف بالنساء الواتي عرفهن في حياته ، عسى أن نلقي بصيصا من النور على أسباب تلك الحملة الشعواء على المرأة !!٠

مما لا شك فيه بأن علاقة نيتشه بالمرأة كانت محدودة ، وذلك حين بلغ سن النضج ، ولكـن في طفولته ، فقد عاش في أسرة تتكون من النساء ، أمه وأخته وجدته وعمتين فاتتهما قافلة الزواج ، فله

---

(١) نيتشه : امور انسانية ج ١ فقرة ٤٣٥ ٠

يطمئن باله ، ولم يتعلق بهذه الأسرة تعلقا كبيرا ·

ولما عرف نيتشه الآنسة « لو سالومي » ظن أنه قد عرف أذكى وأنبل نساء الارض « ان لها نظرة ثاقبة كنظرة النسر ، ولها شجاعة الأسد » ولما عرض عليها الزواج بعد حب جارف يبدو أنه كان من جانب واحد ، ولكنها رفضت هذا العرض فظن نيتشه أنها خدعته مع صديقه « باول ري » الذي تزوجته فيما بعد · فكانت تلك صدمة قاسية له ، هدت عزيمته ، وكادت تقوده الى الانتحار بعد أن تناول كمية كبيرة من أقراص منومة كان قد اعتاد على تناولها ·

وبالاضافة الى هذه العلاقة النسائية توجد هناك علاقة أخرى أبعد أثرا في حياة نيتشه ، وهي علاقته بكوزيما فاجنر ، حيث نلاحظ أن هذه المرأة قد احتلت مكانا ساميا في قلب نيتشه لما كانت تتمتع به من ذكاء خارق ، وسعة اطلاع ، وجرأة نادرة دفعتها لتتحدى كافة التقاليد ، فأحبها نيتشه بصمت وعمق ، ولم يعلن عن حبه الى أن جاء اليوم الذي فقد فيه نيتشه كافة مقوماته الذهنية فكان أول عمل قام به أن باح بسر حبه اللاعج الدفين لكوزيما

فاجنر بطريقته الخاصة ، مما يؤكد لنا مدى الدور الكبير الذي كان يلعبه هـذا الحب في ذهنـه وفي تفكيره طوال حياته الواعية ٠

وفي اعتقادنا أن هذا الفشل في علاقات نيتشه النسائية ، كان من الاسباب المباشرة في حملتـه الشعواء على المرأة ، باعتبارها مخلوق ناقص ، وفيها من العيوب المستورة ما يحتم علينا ألا نوليها أي ثقة ٠ كون المرأة حسب مفهوم نيتشه تهتـم بالأشخاص لا بالأشياء ٠ وهي اذا اهتمت بالاشياء فانما تعاملها كما لو كانت أشخاصا ، وتنظر اليها نظرة شخصية متحيزة ٠ فمن الخطر أن نعهد اليها بالأمور الهامة ، كالسياسة مثلا ، اذ أنها عندئـذ لا يمكنها أن تتصرف تصرفا نزيها ، محايدا ٠

ويقف نيتشه تجاه حركة تحرير المرأة بكـل طاقاته الفكرية ، فيرى أن طبيعة المرأة عقبة كاداء في وجه هذه الحركة الخاصة بها ، كونها بطبيعتها المسالمة تحترم السلطة السائدة ، والافكار التـي يقرها المجتمع ، وليس بمقدورها أن تتحدى هـذه السلطة أو تخالف هذه الافكار ، ومن هنا كـان تعلقها بالرجل يحول دون مضيه في طريق تحرره

من نفسه ، فضلا عن تحررها بالذات . ويؤكد نيتشه أن الروح الحرة لا تعيش أبدا مع المرأة(١) . وانما تحلق وحدها ، وتسير وفق سلوكها الذاتي . وأقصى ما يمكن أن تصل اليه المرأة من مكانة ، هي مكانة الاشياء المملوكة فحسب .. وأما الرجل الذي يتصف برأي نيتشه بالعمق في روحه كما في رغباته ... فلا يمكنه أن يفكر في المرأة الا على الطريقة الشرقية دائما . أعني أنه لا بد أن ينظر الى المرأة على أنها شيء يمتلك ، وعلى أنها متاع محجب ، وعلى أنها شيء كتب عليه مقدما أن يستعمل في الخدمة المنزلية ، وأن يحقق ذاته فيها (٢) .

ومن الواضح أن العامل الشخصي قد بلور آراء نيتشه هذه ، فتقديره الكبير لشخصيات نسائية في حياته مثل لو سالومي وكوزيما فاجنر ، يؤكد أن رأيه الحقيقي الباطني الذي يصطخب في أعماق ذاته في المرأة لم يكن دائما على هذا النحو من الشدة والعنف ، وانما نهج هذا النهج فيما بعد ، عنده

(١) نيتشه : أمور انسانية ج ١ فقرة ٤٣٦ .
(٢) نيتشه : بمعزل عن الخير والشر فقرة ٢٣٨ .

أخفقت علاقاته بهؤلاء النساء ، فهو الذي يقول : « ان الزيجات التي تتم عن طريق الحب تتولد عن الخطأ أبا وعن الحاجة أما (١) » ٠

ويبدو من الجلي أن العامل الذاتي قد أكسب نيتشه طغيـــان معلوماته الثقافيـــة على روابطـه الواقعية بالعالم المحيط به ، فهو يرجع بذهنه الى العصر اليوناني ، ويجد مثلـه الأعلى في فكـــرة اليونانيين حول المرأة ، ويبرر الشذوذ الذي عرف عن اليونانيين تبريرا يجعل منه ظاهرة سليمـــة نقية ، فيرى أن ميل الرجال الى التغزل في الشبان في العصر اليوناني انما كان بفضل طغيـــان روح الرجولة على اليونانيين ، ويؤكد أن مهمة المرأة في العصر اليوناني كانت تقتصر على انجاب أبناء ذوي أجسام قوية كآبائهم ، مما أدى الى حفظ شباب الحضارة اليونانية ٠ حضارة الرجولة كما يعتقد أطول مدة ممكنة ، لأن المزج بين طبائـــع العصور يؤدي به الى أن يقصر مهمة المرأة على انجاب أبناء أقوياء فحسب ، متجاهلا تماما كل التطورات التي مرت بها الانسانية بين العصرين ٠

---

(١) نيتشه : امور انسانية جـ ١ ص ٣٨٩ ٠

ومما لا شك فيه أن نيتشه يمزج بين الصفات الطبيعية ، والصفات الاجتماعية ، وهو لم يحاول أن يفكر بعمق في علة هذا النقص الذي رآه في المرأة ، واعتقد أنه صفة طبيعية فيها ، ولم يلاحظ أن هذا النقص ربما يكون نتيجة عوامل اجتماعية محددة ، لا عن ذلك الاصل غير المنطقي ، أي التركيب الطبيعي ٠

ولا نستغرب أبدا هجوم نيتشه على المرأة بضراوة وعنف بدون أن يلتفت الى العوامل الاجتماعية ، التي فرضت على المرأة أن تكون منزوية في منزلها ، تخضع لانفعالات الرجل التي دامت قرون عديدة ، ومن الطبيعي أن يؤدي تراكم الضغط عليها عبر الاجيال الى أن يبعث فيها روح المحافظة والانزواء ، والخوض من كل انطلاق من قيود وقوانين السلطة السائدة في المجتمع ٠

نيتشه والقومية :

صورت الدعاية النازية نيتشه بأنه فيلسوف متعصب لقوميته يبشر بالثورة والحرب لحسم أي نزاع يقع بين وطنه وغيره من البلاد ٠ ولضمان

سيادة هذا الوطن وتأكيد تفوق العرق الذي ينتمي اليه على سائر الاعراق البشرية ٠

وقد يتساءل المرء هل هذه الدعاية تمت بأي صلة الى ما كان يراه ويعتقده نيتشه ؟ ولكن يبدو أن الصورة التي رسمتها تلك الدعاية لافكار نيتشه كانت صورة متناقضة لا تتفق مع الواقع بشيء ، لأن نيتشه كما هو معلوم لم يؤيد قوميته ،ويتعصب على العرق السامي مطلقا ، كما يفهمه فلاسفة النازية ، ولم يدع الى الحرب ، لنفس الاغراض وعلى نفس الأسس التي قام عليها التفكير الفلسفي النازي في تلك الفترة الحالكة من تاريخه ٠

ويناقش الدكتور زكريا هذه الناحية الهامة من تفكير نيتشه فيقول : « أما عن معنى (١) الوطنية عند نيتشه ، فلا شك في أنه لم يكن ألمانيا متعصبا بالمعنى الذي عرف عن فلاسفة الامبراطورية في عهد بسمارك ، وفي الحربين الاخيرتين ٠ فلم يكن نيتشه من أولئك الألمان الذين يزجون مدائحهم الى العنصر الالماني ، ويتغنون بامتياز شعبهم وعلوه

---

(١) نيتشه : للدكتور فؤاد زكريا ص ١٣٦ ٠

على سائر شعوب الارض ، بل انه كان في كثير من الأحيان يعيب على العنصر الالماني غموضه وصوفيته وافتقاره الى الوضوح والدقة ، ويمجد الثقافة الفرنسية ، ويتأثر كثيرا بمفكريها ، ويفضلهم عن مواطنيه من الالمان ·

ولقد كان مثله الأعلى هو أن يتجاوز حدود القومية الضيقة ، وكان يفخر بذلك حتى أواخر أيام تفكيره الواعي ، فيقول : « ان الاصل الذي أنحدر منه يمكنني من أن أمتد بنظرتي (١) الى ما وراء كل أفق محلي فحسب ، ووطني فحسب · فليس من العسير علي أن أكون أوروبيا طيبا » · بل انه كان يحمل على التعصب الوطني بوجه عام ، ويراه عقبة في طريق الاختلاط بين الأمم الأوروبية ، ثم ينتقده قائلا : « ليست مصلحة الكثرة ـ أي الشعوب ـ هي التي تملي تلك الروح القومية ، كما يقال في كثير من الاحيان ، وانما قبل كل شيء مصالح الأسر الحاكمة المحددة ، وكذلك مصالح طبقات تجارية واجتماعية معينة (٢) » · وهكذا يرى في التعصب الوطني المتطرف خدعة

(١) نيتشه : هوذا الرجل ، القسم الاول ف٣ ·

(٢) نيتشه : امور انسانية : جـ ١ فقرة ٤٧٥ ·

تضر بمصالح الشعوب ، ويدعو الى نوع من الروح العالمية ، ويبدو أن سيطرة الروح اليونانية على تفكيره لم تترك له مجالا لتمجيد الالمان ، اذ كان يحلم دائما ببعث حضارة اغريقية ديونيزية تغمر العالم بأسره ، وتتعدى حدود الوطنية الضيقة ٠

وأما عن تعصبه للعنصر الآري ، فهذا ما لم يقم عليه أي دليل ٠ بل ان زواج شقيقته من أحد هؤلاء المتعصبين وهو برنارد فورستر ، كان صدمة أليمة له ، وظلت علاقته به غير ودية الى النهاية ٠ والحق أن آراء نيتشه الحقيقية لا يمكن أن تعد مناصرة للمنصرية الآرية على الاطلاق ، بل انه ليصرح بأن الأمة الالمانية بلغت حدا عظيما من الاختلاط في أصلها : فالعنصر الالماني ليس نقيا على الاطلاق ، وانما تداخلت فيه عناصر عديدة ، وذلك أمر ينتمي الى الطبيعة الحقة للالمان (١) ٠ واذا كان نيتشه قد حمل على اليهود كثيرا في كتاباته ، فلم يكن ذلك لأنهم من الجنس السامي ، ذي الصفات المضادة للجنس الآري الذي ينتمي اليه الألمان ، وانما كان ذلك لاسباب مختلفة عن ذلك كل

---

(١) نيتشه : بمعزل عن الخير والشر ف ٢٤٤ ٠

الاختلاق • فحملة نيتشه على اليهود راجعة الى أسباب تاريخية قديمة ، ولا صلة لها باليهود المعاصرين له على الاطلاق : فاليهودية هي أصل المسيحية ، بل انه كثيرا ما يدمج العقيدتين في تيار واحد ، ويراهما مسئولتين عن روح الضعف والتخاذل التي هي عنده من صفات المتدينين بوجه عام • فحملة نيتشه على اليهودية انما هي امتداد لحملته على المسيحية ، وعلى أصل من الاصول الرئيسية للمسيحية فحسب ، ومعنى ذلك أنها حملة خلت تماما من كل اشارة الى التعصب العنصري ، ما دامت تسري أيضا على المسيحية بأسرهم ، ومنهم الالمان بوجه عام • أما اذا كان الامر متعلقا باليهود المعاصرين ، فان نيتشه يعبر في كثير من الاحيان عن عطفه عليهم ، ويدافع عن قضيتهم ، ويشيد بفضلهم على أوروبا (١) » •

الدين عند نيتشه :

من المؤكد أن نيتشه لا يدين بأي عقيدة من العقائد المعروفة ، ولا قال بأي دين من الاديان

(١) نيتشه : امور انسانية جـ١ ف ٤٧٥ •

الموجودة في عالمنا بل على العكس من ذلك نراه يوجه الى الاديان أعنف النقد وخاصة على فكرة وجود الأديان • وفي رأيه أن الروح الدينية تفتقر الى كل فهم للقوانين الطبيعية ، وما الاديان بنظـره الا امتداد للتفسير البدائي ، الذي كان يفهم كل شيء من خلال السحر والخرافة • فلا شيء في نظر هذه الروح يحدث « طبيعيا » وانما تتحكم ارادة واعية في كل الحوادث ، وتصبغها بصبغة الخير أو الشر ، وكلما عجزت عن فهم ظاهرة ما ، أرجعتها الى فعل هذه الارادة الواعية • وكما كانت العقلية البدائية تملأ الكون بالقوى الخفية التي تتسبب في خلـق الحوادث بطريقة ارادية ، فكذلك تفسر العقليـة الدينية حوادث الكون تفسيرا مماثلا ، سواء تعددت في نظرها تلك القوى الخفيـة أم توحدت • واذا حدث ما يناقض فعل القوى الخيرة التي تتحكم في الكون ، نسب ذلك الى قوة أخرى ، هي «الشيطان» وأغفل كل تعليل طبيعي للشر •

ويرى نيتشه أن قطرة من الدم تزيد أو تنقص في المخ قد تسبب لحياتنا من الشقاء والالم ما يجعلنا نقاسي منها أكثر مما قاسى بروميثيوس من عقابه • غير أن أخطر ما في الامر هو الا ندرك أن تلـك

القطرة هي السبب ، بل نعزو ذلك الى الشيطان ، أو الخطيئة ·

ومن هنا يتبين لنا أن نيتشه ينظر الى أن العقلية الدينية نقيض العقلية العلمية · باعتبار الأولى تفسر الاشياء من خلال قوى وارادات واعية ، والثانية تفسرها على أنها مستمدة من منطق الحوادث ذاتها ، لا من تشبيه حوادث الطبيعة بما يجري داخل الذات الانسانية الواعية ·

والى جانب كل هذا يعلل نيتشه هذه الامور تعليلا نفسيا ، فيذهب الى أن المتدين (١) يؤمن بالوحي ، أي أن الافكار تهبط اليه من مصدر يعلو عليه ، بحيث لا يكون ذهنه هو الا أداة تتلقى الافكار سلبيا فحسب . وهذه هي المشكلة النفسية الكبرى في الدين : فكيف يتسنى للمرء أن ينظر الى آرائه هو عن الاشياء ، على أنها وحي ؟ تلك هي مشكلة أصل الأديان · وفي كل حالة سادت فيها عقيدة ما ، كان يوجد رجل يؤمن بالوحي ، بحيث انه عندما كون فرضا شاملا عن العالم ، لم يتمكن

---

(١) نيتشه : الفجر ف ٦٢ ·

أن يتصور أن يكون كل هذا النظام والجمال الكوني من صنع ذهنه هو ، فينسبه الى الوحي ، ولا شك أن المرء ، يضفي مزيدا مـــن القـــوة اذا عزاه الى الوحي ، ويجعله بعيدا عن النقد والشك ، أعني يجعله مقدسا غير قابل للنقـــد والشك باعتبـــاره معصوما • حقا ان مكانة المرء ستهبط عندئـــذ ، فيصبح مجرد أداة ، ولكن رأيه سينتصر في نهاية الأمر ، حين يصبح فكرة الهية • ففي الدين يحط المرء من قدر ذاته عامدا ، حتى يضمن لرأيـــه الانتصار • ومن هنا يستنتج نيتشه أن الدين قد حط من قدر تصور الانسان ، فنتيجته النهائية هي أن كل ما هو خير ، وعظيم ، وحقيقي ، هو فوق الانسان ، وما وهب له الا تفضيلا (١) •

ومن الطبيعي جدا أن يشن نيتشه على الافكار الدينية حملات نقدية مرة ما دامت الروح الدينية في اعتقاده ظاهرة منحرفـــة ، ومـــا دام يدعو الى استبدال نظرة طبيعية بالنظرة الدينية غير العلمية • ويجد نيتشه من المفروض فيه أن يحاول اعـــادة الثقة التامة الكاملة الى الانسان بذاته ، ويرجـــع

(١) نيتشه : ارادة القوة ف ١٣٦ •

اليه حقه الذي سلبه منه الوحي والدين بمجمله ٠ لذلك نراه يحمل على فكرة الألوهية ، كونها بنظره عقبة كأداء تحول دون تأكيد الانسان لذاته ، طالما يؤمنون بوجود قوة الهية فوق طاقة البشر ومستواهم العقلاني والفكري ، فلا بد اذن من أن يبشر بضرورة رفع الستار عن ماهية هذه القوة الخيالية التي أملاها الدين والوحي ، ليصار من بعدها الى رفع شأن الانسان وقدره ، باعتباره أرفع الموجودات قدرا ٠

ويلاحظ أن نيتشه عندما يعلن حربه الشعواء السافرة على فكرة الألوهية لا يترك مجالا للشك في أنه قد ترك تماما هذه الفكرة ، ولم يرجع اليها في ذهنه أي دور تقوم به ٠ وربما أخذ نقده طابع من السخرية في كثير من الاحيان ، حيث نراه يقول مثلا : ان وجود الله ذاته كان يغدو مستحيلا لو لم يكن يوجد أناس حكماء ــ هذا ما قاله لوثر ، وله الحق فيما قال ، ولكن ــ ان وجود الله كان يغدو أكثر استحالة لو لم يكن يوجد أناس بلهاء ــ هذا ما لم يقله صاحبنا لوثر ! (١) » ٠

(١) العلم والمرح ف ١٤٩ ٠

وقد ينهج نيتشه في نقده نهجا آخر يؤلف بمجمله الحقد الثوري الأرعن ، فيتساءل قائلا : أيكون الها خيرا ذلك الذي يعلم كل شيء ، ويقدر على كل شيء ، ولا يعبأ مع ذلك بأن تكون مقاصده مفهومة لمخلوقاته ··· ألا يكون الها شريرا ذلك الذي يملك الحقيقة ، ويرى ذلك العذاب الأليم الذي تعانيه البشرية من الوصول اليها ؟ (١) ·

وهذه الانواع من نقد نيتشه لم تكن حاسمة بنظره فيرى أنه كان المرء يسعى الى أن يبرهن على أن ليس ثمة اله ـ واليوم يبين المرء كيف أمكن أن ينشأ الاعتقاد بوجود اله ، والى أي شيء ترتد أهمية هذا الاعتقاد وقوة تأثيره · وفي هذه الحالة يكون البرهان الآخر على أنه ليس ثمة اله ـ يكون هذا البرهان سطحيا · ذلك لأنه عندما كان المرء من قبل يفند البراهين القديمة على وجود الله ، كان يظل هناك شك دائم في احتمال كشف براهين أفضل من تلك التي فندت · واذا تمكن الفيلسوف أن يثبت أن هذه الفكرة قد نشأت أي أن لها أصلا تاريخيا أو نفسيا معينا ، وأنها قد ظهرت لكي تفي

---

(١) نيتشه : الفجر ف ٩١ ·

بمقتضيات انسانية خاصة في ظروف معينة ، فعندئذ يكون في نفس الوقت قد قضى على ما تنطوي عليه الفكرة من ثبات وأزلية ، وفي هذا قضاء على الفكرة ذاتها •

ولكي يثبت نيتشه أن الاحوال النفسية المنحرفة تؤدي الى ظهور الروح الدينية والآلهة ، يرى أن الفكرة قد نشأت من الوجهة التاريخية من تصور الله في مختلف الاديان ، مع وجود اختلاف أساسي بين هذه التصورات ، مما يبشر بالقضاء عليها جميعا • وتصور المسيحية واليهودية مرتبط برغبة الانسان في معاقبة نفسه ، ومرتبط بشعوره بالذنب • وهذه الرغبة والشعور هي التي تتجسم في فكرة الله ذاتها ، فتصوره على نحو مضاد للانسان تماما ، وتنسب اليه من الاوامر ما يقف في وجه الطبيعة البشرية ويعوق سيرها التلقائي •

ويلاحظ نيتشه من جانبه أن الارتباط بين الامرين ، أي بين تصور الألوهية وبين الحملة على الطبيعة البشرية ، ليس ضروريا • فهناك شعوب تصورت آلهتها على نحو مخالف تماما لفكرة الشعور بالذنب هذه • فعند اليونان مثلا يؤله الانسان ما

هو انساني ـ وربما ما هو حيواني ـ فيه ، وتختفي تماما فكرة الخطيئة والذنب ، ولا يدأب على لوم نفسه والحط من قدرها ، كما هو الحال في المسيحية (١) ٠

ومن المؤكد أن نظرة نيتشه الى المسيحية كانت تتأثر بعاملين رئيسيين : أولهما نقده للروح الدينية بوجه عام ، وهو النقد الذي امتد ضرورة الى المسيحية بوصفها الصورة الرئيسية لتلك الروح الدينية في المجتمع المحيط به ٠ وأما العامل الثاني ، فهو تعلقه بكل ما هو يوناني ، حتى يكاد المرء يحس في كتاباته تمجيدا للعقائد اليونانية ذاتها ، لأنه يرى الحياة اليونانية أسمى بكثير من الحياة المسيحية ٠ ذلك لأن العقائد اليونانية لم تكن تقف في وجه نمو القوى الطبيعية للانسان ، بينما كانت العقائد المسيحية واليهودية عقبة كبرى تحول دون نمو هذه القوى ٠ لاعتمادها على المشاعر أكثر مما تعتمد على العقل ، أي أنها كانت رد فعل على النزعات الفلسفية العقلية السابقة عليها ، والتي سادت العصر اليوناني ٠ فالفضائل المسيحية

---

(١) نيتشه : أصل نشأة الاخلاق القسم الثاني ف ٢٢ ٠

ليست انتصارا للعقل على المشاعر • كما قال الفلاسفة الاغريق ، بل انها كلها تنبع من مشاعر أو انفعالات معينة ، مثل حب الله ، وخشية الله ، والايمان بالله ، والامل في الله (١) •

ويحمل نيتشه على فكرة الخطيئة في المسيحية : فالانسان والطبيعة برأيه أبرياء ، والخطيئة وهم ناتج عن انحراف نفسي ، ورغبة شاذة في معاقبة الذات وتأنيبها . والحس هو المجال الطبيعي لممارسة القوى الانسانية ، وليس فيه ما يحط من قدر الانسان في شيء •

وليست حملات نيتشه الكثيرة على المسيح باعتباره حسب مفهومه لم يسر في الطريق الذي اتخذه لنفسه الا لأنه قد أساء فهم دوافعه النفسية، وذلك ما أدى به الى الشعور بالحاجة الى الخلاص ، ولو أحسن فهم تلك الدوافع ، وتخلص من أخطائه الذهنية والنفسية ، لما كان مسيحا على الاطلاق ، سوى انفعالات نفسية أملتها ظروف ذهنية معينة ، كوننا نلاحظ أنه في بعض الاحيان يخفف من حدة

---

(١) نيتشه : الفجر ف ٥٨ •

لهجته ، وينبري مدافعا عن المسيحية التي جاء بها المسيح ، مؤكدا أن الدظام الذي سارت عليه الكنيسة فيما بعد ، بما فيه من قساوسة ، ولاهوت وطقوس، هو ما كان يحاربه يسوع بوجه خاص (١) ، وهو الذي صبغ المسيحية بالصبغة الحالية التي كانت هدفا لحملاته ، وينسب كل هذه التغييرات الى القديس بولس ٠

ويرى نيتشه ان الانسان الحديث ، لم يعد يتحمل مثل هذه التعاليم ، لوجود أفكارا لا يكاد العقل يتصورها اذا محصها بشيء من الموضوعية فيقول : « عندما نستمع في صباح الاحد الى دقات النواقيس القديمة ، نتساءل : أهذا ممكن ! ان ذلك كله من أجل يهودي صلب منذ ألفي عام ، كان يقول انه ابن الله ، وهو زعم يفتقر الى البرهان٠ فلا جدال أن العقيدة المسيحية هي بالنسبة الى عصرنا أثر قديم نابع من الماضي السحيق ٠ وربما كان ايماننا بهذا الزعم ، في الوقت الذي نحرص فيه على تقديم البراهين الدقيقة لكل رأي آخر ، هو أقدم ما في هذا التراث ٠ فلنتصور الها ينجب

---

(١) نيتشه : ارادة القوة ف ١٩٦ ٠

أطفالا من زوجة فانية ·· وخطايا ترجع الى اله ، ويحاسب عليها نفس الاله ، وخوفا من عالم آخر يكون الموت هو المدخل اليه ··· لكم يبدو لنا كل ذلك مخيفا ، وكأنــه شبح قــد بعث من الماضــي السحيق · أيصدق أحد أن شيئــا كهذا لا يــزال يصدق ؟ (١) ·

ويبدو أن العقائد في كل صورها المعروفة لم تكن تنسجم مع تفكير نيتشه العقلاني ، ولكنه رغم هذا لم يقف منها موقف الانكار السلبي ، ولكنــه جسد في أواخر تفكيره الفلسفي ، عقيدته الذاتية المتعلقة بالعود الابدي التي يرى أنها تشمل كافة المنطلقات التي افتقرت اليها العقائد الشائعــة ، وتقول بعبادة الارض ، والانسان في هذا العالــم وترتكز بشكلها العرفاني على التصور اليونانــي للعالم ، وتعود في كثير من شروحاتها الى تعاليــم فلاسفة اليونان ·

نيتشه والعود الأبدي :

من الأسس العلمية التي تعتمد عليهــا فكــرة

---

(١) نيتشه : امور انسانية جـ١ ف ١١٢ ·

العود الابدي عند نيتشه ، القول بأن مدى القـوة الكونية متناه ومحدود • وهذا يعني أن عدد مواقع هذه القوة وتغيراتها وتركيباتها محدود بدوره ، وان يكن هائلا • ففكرة استمرار التحول الى مـا لا نهاية تنطوي في ذاتها على تنـاقض ، كونهـا تفترض وجود قوة تتزايد الى ما لا نهاية • ولكن أين لها هذا التزايد ؟ ومن أين تتغذى بهذا القدر الهائل ؟ ان تصور العالم على أنه قوة محدودة هو الذي يميز الروح العلمية من الروح الدينية من وجهة نظر نيتشه •

ومما يلفت النظر في نظرية نيتشه حول العود الابدي ، أنه أكسب التحول صفة الوجود ، بحيث لم يعد يقول بتحول دائم يسري دون أن تكون له أية هوية مع ذاته ، بل أصبح التغير يرجع الى ذاته على الدوام • فهو تحول خالد تصطبغ كل مراحله بصبغة الابدية •

ويقول نيتشه في أصل المعرفة (١) : « لم يتولد عن العقل خلال الازمان الهائلـة الماضية سـوى

(١) نيتشه : العلم والمرح ف ١١٠ •

الاخطاء ، ومن هذه الاخطاء ما ثبت نفعه وقدرته على حفظ النوع ، بحيث استطاع من اهتدى اليه أو تلقاه بالميراث ، أن يحرز في نضاله من أجل ذاته ومن أجل ذريته مزيدا من النجاح ـ ومن قبيل هذه المعتقدات الباطلة ، التي ظلت تتوارث حتى كادت في نهاية الامر أن تعد كامنـة في ماهيـة النـوع الانساني الاعتقاد بأن ثمة أشياء ثابتة وبان ثمة أشياء متماثلة ، وبأن ثمة أشيـاء ، وجواهـر ، وأجساما ، وبأن الشيء يكون على النحو الـذي يتبدى عليه ، وبأن لنا ارادة حرة ، وبأن ما هو خير بالنسبة الي هو خير في ذاته ولذاته ٠

ولم يظهر من ينكر مثل هذه المعتقدات أو يشك فيها الا في وقت متأخر جدا ـ أعني أن الحقيقة لم تظهر الا متأخرة جدا ، فاذا بها أضعف صور المعرفة وأقلها أثرا ٠ وعندئذ ، ظهر للمرء أنه لا يستطيع أن يحياهـا ، اذ أن الكـائن العضوي ، كالادراك الحسي وسائر أنواع الادراك بوجـه عام انمـا مورست من خلال هذه الاخطاء الاساسية القديمـة التي سرت فيها ٠ بل ان هذه المباديء قد غدت هي ذاتها المعايير التي يقاس بها ما هو « حقيقي » وما

هو « غير حقيقي » في المعرفة ـ حتى تغلغلت في أعمق مجالات المنطق الخالص ••

وعلى ذلك فقوة المعرفة لا تكون في مدى حقيقتها، بل في قدمها ، ومدى تغلغلها فينا . وطبيعتها بوصفها شرطا من شروط الحياة • وحيثما بدت الحياة والمعرفة في تعارض ، لم ينشب أي صراع جدي : فهنا يعد الانكار والشك ضربا من الجنون •

أما أولئك المفكرون الذين شذوا عن هذه القاعدة . كالايليين ، الذين أكدوا رغم ذلك ما في الاخطاء الطبيعية من تقابل ، وتمسكوا به ، فقد اعتقدوا أن من الممكن أيضا أن نحيا هذا التقابل : ومن هنا ابتدعوا شخصية الحكيم ، بوصفه ذلك الذي يتصف بالثبات واللاشخصية ، وشمول الأفق، ويكون واحدا وكلا من الآن نفسه ، وتتوافر لديه قدرة خاصة على هذه المعرفة المعكوسة ، وهكذا يعتقدون أن معرفتهم هي في الوقت نفسه « مبدأ الحياة » •

على أنه كان يتعين عليهم ، لكي يتسنى لهم أن يؤكدوا كل ذلك ، أن « يخدعوا » أنفسهم في موقفهم

الخاص ـ أعني أنه كان يتعين عليهم أن ينسبوا الى أنفسهم اللاشخصية والثبات الذي لا يعرف تحولا ، وأن يسيئوا فهم ماهية المعرفة ، وينكروا أهمية الغرائز في المعرفة ، وبالاجمال ، أن يتصوروا العقل على أنه فاعلية كاملة الحرية ، نابعة من ذاتها فحسب • ونسوا أنهم ما وصلوا الى مبادئهم هذه الا بمناقضة ما هو شائع ، أو بدافع الرغبة في السكينة ، أو الاستحواذ أو السيطرة •

على أن التطور الاعمق الذي سارت فيه نزعات الشك الامينة قد جعل وجود مثل هؤلاء الناس محالا في نهاية الامر ، فقد تبين أن حياتهم وأحكامهم تعتمد بدورها على الغرائز المتأصلة والاخطاء الأساسية القديمة التي تكمن في كل كائن مدرك •

ولقد كانت مثل هذه النزعة الاعمق ، التي تتصف بالأمانة والشك ، تظهر حيثما يبدو مبدآن متعارضان قابلين للانطباق على الحياة ، ما دام كل منهما يتفق والاخطاء الاساسية ، أعني أنها كانت تظهر حيثما أمكن أن يثار الجدال حول مدى نفع هذه المباديء للحياة ، ولكنها على الاقل ليست ضارة بها ، أعني أنها كانت من انتاج ميل غريزي الى

اللهو العقلي ، وفيها من البراءة والطرافة مـا في سائر مظاهر اللهو ٠

وبالتدريج امتلأ الذهن الانساني بمثـل هذه الاحكام والمعتقدات ، وثار في هذا الخليط فوران ، وصراع ، ونزوع الى القوة ، ولم يكن النفع واللذة هما وحدهما اللذان تدخلا في هذا الصراع من أجل الحقائق ، بل تدخلت فيه كل أنواع الغرائـز ، وأصبح الصراع العقلي انشغالا وحماسة ،ورسالة، وواجبا ، وكرامة ، وانتهى الامر بالمعرفةوبالسعي وراء الحقيقة الى أن يصبح حاجة ضمـن سائـر الحاجات ٠

ومنذ ذلك الحين لم يعـد الايمان والاقتنـاع وحدهما قوة ، بل غدا البحث ، والانكار ، والريبة، والتناقض ، قوة بدورها . وانتظمت المعرفة كل الغرائز الشريرة ، واستغلتها في خدمتها ،واكتسبت هذه مكانة النزعات المشروعة ، المبجلة ، المفيدة ، وأصبح لها أخيرا مظهر الخير وبراءته ٠

وهكذا أصبحت المعرفة قطعة من الحياة ذاتها ، ولما كانت هي ذاتها حياة ، فقد غدت قوة دائمـة

النمو ، حتى انتهى الامر الى تصادم المعارف وتلك الاخطاء الاساسية القديمة ، ما دامت كل منهما حياة ، وكل منهما قوة ، وكل منهما تتمثل في الانسان عينه •

فالمفكر هو الآن ذلك الكائن الذي يتصارع فيه لأول مرة ذلك الميل الى الحقيقة مع تلك الاخطاء التي تحفظ الحياة ، بعد أن تبين أن الميل الى الحقيقة هو ذاته ميل حافظ للحياة • والحق أن كل أمر آخر ليغدو ، بالقياس الى أهمية هذا الصراع ، غير ذي بال ، فهنا يثار السؤال الاخير عن شرط الحياة ، وهنا تبذل المحاولة الأولى للاجابة عن هذا السؤال عن طريق التجربة • فالى أي حد تحتمل الحقيقة أن تتمثل ؟ ذلك هو السؤال، وتلك هي التجربة » •

ولما كان نيتشه قد وضع لفكرة العود الابدي قواعد علمية ترتكز عليها تلك الفكرة ، لا بد لنا من القول بأن تلك القواعد كانت عبارة عن منطلقات عقلانية هادفة الى اظهار نتائج المذهب الآلي باعتبار العالم آلة عمياء ، من شأنها أن تمر بنفس الحالات مرات لا متناهية • ولا بد لهذه الآلة من أن تؤدي

وظيفتها بشكل دوري منتظم ، بحيث يعود دائما الى نفس الحالات التي مر بها دون أي تغير ٠

ويرى نيتشه أن القول بأن مدى القوة الكونية متناه ومحدود ، من المنطلقات الاساسية والقواعد العلمية الرئيسية لفكرة العود الابدي ٠ وهذا يعني أن عدد مواقع هذه القوة وتغيراتها وتركيباتهـا محدود بدوره ، وان يكن هائلا ٠ ففكرة استمرار التحول الى ما لا نهاية تنطوي في ذاتها على تناقض، اذ تفترض وجود قوة تتزايد الى ما لا نهاية ٠ ولكن من أين لها هذا التزايد ؟ ومن أين تتغذى بهـذا القدر الهائل ؟ ان تصور العالم على أنه قوة محدودة هو الذي يميز الروح العلمية من الروح الدينية ٠ فنحن نعتقد اليوم أن القوة هي هي دائما ، وأنها لا ينبغي أن تكون لا متناهية بالضرورة ٠ هي حقا فعالة فعلا أبديا ، ولكن طاقتهـا محدودة ، فـلا تستطيع أن تستمر في خلق حالات جديدة الى مـا لا نهاية له ٠

ولو فرضنا أن الشرط العلمي الاول لتحقـق العود الابدي هو أن تكون القوى الكونية متناهية ، فالشرط الثاني هو أن يكون الزمان لا متناهيا ،

أي أن تظل هذه القوة تمارس فعلها بلا انقطاع . فاذا توافرت اللانهائية للزمان ، فلا بد أن تستنفد الامكانيات التي تتاح لهذه القوة المحدودة ، وبهذا تأتي حالة تماثل تماما حالة أخرى تكررت من قبل ، وعندئذ تتلو عنها كل الحوادث كما وقعت من قبل تماما ، ويكون الكون قد أتم دورة من دوراتـــه ، وتظل هذه الدورات تتكرر الى الابد خلال الزمان اللامتناهي ، كل منها مماثلة للاخرى في كل صغيرة وكبيرة .

ومن المؤكد أن لفكرة العود الابدي ، من جهة المذهب الآلي مزايا عديدة : فهي تفوق في بساطتها كل نظام يصور العالم على أنه يسير في خط واحد نحو غاية معلومة ، أي أن له بداية ونهاية . وفيها قدر كبير من الاستقرار والثبات : فهـــي تضمـــن سيادة القانون العلمي ، ولا تجعله عرضة للتحول والتغير . كما أنها لا تهيب بأي مبدأ يخرج عـــن الطبيعة ذاتها ، ويدفـــع العـــالم الى البدايـــة أو النهاية . فمبدأ الاقتصاد في الفكر هو الذي يجعل المذهب الآلي يفضل فكرة العود الابدي على كـــل فكرة تصور العالم الطبيعي تصويرا غائيا .

ويلاحظ أن نيتشه كان يبشر بافكاره العلمية

والفلسفية والاخلاقية التي أوجدها بشأن العـود الابدي ، وكان يكتب الرسائل الى دعاة انكار الذات يشرح فيها أفكاره العلمية هذه ، ولنستمع اليه ماذا يقول في احدى هذه الرسائل (١) ٠

« لا تعد فضائل الشخص خيرا نظرا لما تعود به من نتائج على صاحبها ذاته ، بل بالنسبة الى مـا ننتظر من نتائجها علمنا وعلى المجتمع ٠ والحق أن الانسان في امتداحه الفضائل ، كان دائما أبعد ما يكون عن انكار الذات ، وعن الغيرية ، ولو لم يكن الأمر كذلك ، لأدرك أن الفضائل كالنشـاط ، والطاعة ، والعفة ، والتقوى ، والعدالة ، هي في أغلب الاحيان ضارة بأصحابها ، اذ هي تسيطـر عليهم بشيء غير قليل من العنف والشـدة ، ولا يستطيع العقل أن يحقق التوازن بينها وبين سائر الميول ٠ فحين تكون لديك فضيلة ما ، فضيلة حقة ، كاملة لا مجرد نزع سطحي الى الفضيلة ، تكون أنت ضحيتها ، ومع ذلك يمتدح الجار فضيلتك لهذا السبب عينه ! ان المرء ليمتدح النشاط ، رغم أنه يضر بقوة ابصـار عيني الشخص النشيط ، أو

(١) نيتشه : العلم المرح ف ٢١ ٠

بأصالة روحه وصفائه ، وان المرء ليمجد الشـاب الذي استهلك نفسه في العمل ، ويتحسر عليه ، اذ يحكم على الامر قائلا : ان خسارة خير الافراد من أجل المجتمع بأكمله انما هي تضحية طفيفة ! والمؤلم في الامر أنها تضحية ضرورية ! ولكن الاكثر من ذلك ايلاما أن يفكر الفرد على نحو مخالف ، وينظر الى بقاء ذاته وانمائها ، على أنه أمر يفـوق في الأهمية عمله من أجل خدمة المجتمع !

وهكذا يتحسر الناس على هذا الشاب ، لا حزنا عليه هو ذاته ، وانما لأن المجتمع قد فقد بهذا الموت أداة طيعة تفرط في ذاتها ـ أعني أنه فقد ما يسمى بالرجل المجد • وربما فكر البعض في أنه قد يكون أنفع للمجتمع لو عمل ذلك الشاب على أن يكون أقل تفريطا في ذاته ، وأكثر حرصا على بقائـه ، ولكنهم مع موافقتهم على أن هذا قد يكون فيه نفع للمجتمع ، يؤكدون أن هناك نفعا آخر هو خـير وأبقى ، وأعني به حدوث تضحية ، والشعور بأن فكرة الفداء قد تكررت ودعمت مرة أخرى بصورة بادية للعيان • وعلى ذلك فعندما تمتدح الفضائل يكون ما يمتدح فيها هو في واقع الامر صفتها من حيث هي أداة ، وذلك الاندفاع الأعمى الذي يسود

كل فضيلة ، والذي لا يجعلها تقتصر على حدود نفع الفرد وحده ، أي بالاختصار ، تلك الصفقة الهوجاء في الفضيلة ، التي يتحول بها الفرد الى أداة في يد الكل فحسب ·

فامتداح الفضائل هو امتداح لشيء ضار بالفرد — هو امتداح لميول تسلب الانسان أنبل حب لذاته، وقدرته على أن يرعى نفسه على أكمل نحو · ولا جدال في أن المرء يلجأ من أجل تلقين العادات الفاضلة ونشرها الى ايراد سلسلة من النتائج التي تنجم عن الفضيلة ، على نحو تبدو معه الفضيلة ونفع الفرد متفقين ·

والحق أن هذا الاتفاق بينهما موجود بالفعل ! فالنشاط المندفع الطيع مثلا وهو الفضيلة التي تتميز بها الأداة ، ينظر اليه على أنه هو سبيل الثراء والمجد ، وهو سير ترياق من الملك والآلام ·

غير أن المرء يتجاهل عن عمد ما فيه من خطر ، بل من خطورة عظمى · فالتربية تمضي دائما على هذا النحو : هي تسعى عن طريق سلسلة من الترغيبات والمنافع ، الى أن ثبت في الفرد طريقة في

التفكير والسلوك ، من شأنها ، اذا أصبحت عادة وغريزة وانفعالا متأصلا ، أن تسيطر عليه وتتحكم فيه على نحو مضاد لنفعه النهائي ، وعلى نحو نافع للمجموع · ولكم رأيت النشاط المندفع الطيع يجلب ثراء ومجدا بحق ، ولكنه في نفس الوقت يسلب أعضاء الجسم ذلك الحس المرهف الذي يمكنها به أن تتمتع بهذا الثراء وهذا المجد ، كما رأيت ذلك العلاج الشافي من الملل ومن الآلام يحيل الحواس صماء والروح محصنة ضد التأثير بأية اثارة جديدة · فأنشط العصور ـ أعني عصرنا الحالي ، لا يفعل شيئا بنشاطه وماله الموفور ، سوى أن يكتسب على الدوام مزيدا من المال ويبذل مزيدا من النشاط · وذلك لأن الانفاق يحتاج الى ذكاء يزيد عما يحتاج اليه الاكتساب ! ولكننا على أية حال سيكون لنا أحفادنا من بعدنا ! ما بلغت التربية هدفها ، فان كل فضيلة للفرد تغدو نفعا للجماعة ، وضررا للفرد ، اذ نظر اليها من حيث الهدف الفردي الأسمى · وربما كان في ذلك فساد للروح والحس ، أو هلاك سابق لأوانه · وعلينا أن نتأمل ، من وجهة النظر هذه فضائل الطاعة والعفة والتقوى والعدالة ·

فامتداح من ينكر ذاته ، ويضحي بها ، ويتصف بالفضيلة ـ أعني امتداح ذلك الذي لا يبذل كل طاقاته وذهنه من أجل الابقاء على ذاته ، وانمائها والعلاء بها ، وانهاضها ، وبسط سلطانها ، وانما يحيا ، بازاء ذاته ، حياة كلها ضعة وغفلة ، وربما كان فيها عدم اكتراث أو سخرية ـ هذا الامتداح لا يظهر أبدا بدافع انكار الذات ! اذ أن الجار لا يمتدح انكار الذات الا لأنه سيجني منه غنما ! ولو كان الجار يفكر على نحو فيه انكار للذات ، لرفض هذا التشتيت للطاقة ، وذلك الضرر الذي يحل من أجله هو ، والعمل على تلافي ظهور مثل هذه الميول ، ولأظهر ـ قبل كل هذا ـ انكاره لذاته ، بالامتناع عن تسمية هذا خيرا ـ وهنا نصل الى التناقض الاساسي الذي تتصف به تلك الاخلاق والتي تلقى اليوم أعظم تمجيد : فدوافع تلك الاخلاق مضادة لمبادئها ·

وتلك الاخلاق تفند ما تريد ان تُبرر به نفسها ـ تفنده بمعيارها الخاص لما هو أخلاقي ! والقصة القائلة « عليك أن تنكر ذاتك وتضحي بها » ينبغي عليها ، اذا شاءت ألا تتعارض مع أخلاقيتها ، ألا تصدر الا عن كائن ينصرف في دعوته هذه عن نفعه

الخاص ، وربما وجد في تلك التضحية التي يدعو الفرد الى القيام بها ضررا له هو ذاته • ولكن ما أن يدعو الجار أو المجتمع الى الغيرية بدافع المنفعة، حتى يكون قد اتبع المبدأ المضاد ، القائل : « عليك أن تسعى الى المنفعة ، حتى على حساب الآخرين » وبهذا يدعو الى الامر عليك أن ••• والنهي عليك ألا ••• في آن واحد ! » •

وكتب نيتشه حول « أخلاق السادة وأخلاق العبيد » فقال (١) :

« خلال جولتي بين عديد من النظم الاخلاقية ، العميقة منها والسطحية ، التي سادت الارض حتى اليوم ، أو لا تزال تسود اليوم ، اهتديت الى سمات معينة تتردد سويا بانتظام ويرتبط بعضها ببعض ، الى أن تبدي لي في نهاية الامر نوعان أساسيان ، وظهر هذا التقابل الرئيسي : فثمة أخلاق للسادة وأخلاق للعبيد ، واني لأذهب الى أنه في كل الحضارات العليا والمختلطة ، تظهر محاولات للتوفيق بين هذين النوعين من الاخلاق ، وأكثر من ذلك

---

(١) نيتشه : بمعزل عن الخير والشر ف ٢٦٠ •

ظهورا ، تداخلهما والخلط بينهما ، وربما ارتبطا أوثق الارتباط في الشخص الواحد ، وفي النفس الواحدة ·

فأحكام القيم الاخلاقية اما أن تنشأ عن نوع من السادة ، الذين يجدون لذة في التمييز عن المسودين، أو تنشأ عن المسودين ، عن العبيد والتابعين من مختلف الانواع · ففي الحالة الأولى ، عندما يكون السادة هم الذين يحددون معنى تصور الخير ،تكون الاحوال السامية المرتفعة للنفس هي التي تعد فضلا ، وهي التي تحدد التفاوت في المراتب ·

ويبتعد الرجل الرفيع عن أولئك الذين تتمثل لديهم صفات مضادة لأحوال النفس السامية هذه ويحتقرهم · ولنلاحظ هنا ، بناء على ما قلناه ، أن التقابل بين الحسن والرديء يعادل في هذا النوع الاول من الاخلاق ، التقابل بين الرفيع والحقير ·

أما التقابل الآخر بين الخير والشر فله أصل آخر · فهنا يحتقر الجبان ، والقلق ، والمتصاغر ، وذلك الذي لا يخرج تفكيره عن حدود المنفعة ، وكذلك يحتقر المرتاب ، بنظرته المقيدة ، وذلك ·

الذي يحقر من شأن ذاته ، وذلك النوع من الناس ، الذي يقبل أن يعامله الغير معاملة الكلاب ، والمنافق المستجدي ، وقبل هؤلاء جميعا ، الكاذب : ذلك لأن من المعتقدات الاساسية لكل الارستقراطيين ، أن عامة الناس كاذبون ٠

ولقد كان النبلاء في اليونان القديمة يسمون أنفسهم « نحن أهل الصدق » ٠ ومن المؤكد أن التقويمات الاخلاقية كانت في مبدأ الامر تطلق على الاشخاص ، ولم تطلق على أنواع السلوك وترد اليها الا فيما بعد ٠

ومن هنا، كان من الاخطاء الكبيرة أن يتخذ مؤرخوا الاخلاق نقطة بدايتهم من أسئلة مثل : لم يحمد الفعل الفعل الشموق؟ فالنوع الرفيع من الناس يشعر بأنه هو الذي يحدد القيمة ، ومن هنا لم يكن في حاجة الى أن يسمى بالخير ، وانما يصدر حكمه على هذا النحو : ان ما هو ضار بي هو ضار في ذاته ، أي أنه يعرف أنه هو الذي يضفي على الإشياء ما لها من شرف ، فهو خالق القيم ٠ وهو يمجد كل ما يجده في ذاته : فمثل هذه الاخلاق انما هي تمجيد للذات ٠

وفي أساس هذه الاخـلاق يقوم شعور فيـاض بالامتلاء ، وبالقوة ، وسعادة التوتر الرفيـع ، والاحساس بالثراء القادر على البذل والعطـاء . فالرجل الرفيع يساعد التعس بدوره ، ولكـن لا يكون ذلك بدافع الشفقة ، وانما بفعل اندفـاع تولده القوة الفائضة . والرجل الرفيع يمجد القوى في ذاته ، كما يمجد ذلك الذي يمارس قوته علـى ذاته ، فيعرف متى يتكلم ومتى يصمت ، ويشعر باللذة حين يعامل نفسه بقسوة وصرامة ، ويمجد كل ما هو قاس وصارم .

وفي الأساطير الاسكندنافية القديمة يقول البطل: لقد وضع قوتان في صدري قلبا صارما . تلك هي الكلمة التي عبرت عنها نفس « فكنج » فخور ، بل ان مثل هذا الرجل يشعر بالفخر لأنه لم يخلق ليكون شفوقا . ومن هنا يضيف البطـل في الاسطـورة السابقة قوله : من لم يكن له منذ حداثته قلـب صارم ، فلن يكون له مثل ذلك القلب أبدا .

فالنبلاء والشجعان الذين يفكرون على هـذا النحو ، هم أبعد الناس عن ذلك النوع الآخر من الأخلاق ، الذي يرى في الشفقة أو العمل من أجل

الغير أو النزاهة دليلا على الاخلاقية • ذلك لأن ايمان المرء بذاته ، وفخره بذاته ، والعداء والسخرية المريرة من كل انكار للذات •

كل هذا ينتمي الى الاخلاق الرفيعة بنفس اليقين الذي ينتمي به اليها احتقارها وتجنبها للشفقة والقلب المعطوف • والأقوياء هم الذين يعرفون كيف يمجدون ، فذلك فنهم ومجال ابداعهم • ومما تتميز به هذه الاخلاق عما عداها ، تبجيلها العميق للقديم وللتقاليد المتوارثة • ومثل هذا التبجيل المزدوج هو أصل القانون بأسره ، والايمان بالسلف والتحيز له ، وعدم الثقة بالخلف ، فاذا كنت تجد أنصار الآراء الحديثة يؤمنون بالتقدم وبالمستقبل ايمانا شبه غريزي ، ويقللون على الدوام من شأن القدماء ، فان هذا في الحق يكفي للكشف عن الاصل غير الرفيع الذي صدرت عنه هذه الآراء •

ويكون وقع أخلاق السادة أغرب وأبغض ما يكون الى الذوق الحالي ، في مبدئها الصارم ، القائل ان المرء لا يدين بواجب الا لنظرائه ، وأن عليه بازاء ذوي المرتبة المنحطة ، وكل ما هو غريب عنه ، أن يسلك كما يرغب ، وكما يشاء هواه أعني

بمعزل عن الخير والشر دائما •

وعلى هذا الاساس وحده يكون للشفقة وما شاكلها من المشاعر مجال • فالقدرة على الشعور العميق بعرفان الجميل ، وبالرغبة في الانتقام ، والالتزام بهذا الشعور (وكلا الامرين لا يكون الا في حدود النظراء وحدهم) والتشبث بالثأر ، ودقة فهم معنى الصداقة ، والشعور بضرورة وجود أعداء ، لكي يكون فيهم منفذ لأحاسيس الغيرة ، والمقاتلة ، والصلف ، وقبل هذا كله ، لكي يستطيع المرء أن يكون صديقا بالمعنى الصحيح •

كل هذه علائم تتميز بها الاخلاق الرفيعة ، التي هي ، كما قلت من قبل ، مختلفة عن أخلاق الآراء الحديثة ، والتي يصعب ، تبعا لذلك ، استيعابها اليوم ، ويصعب التنقيب عنها وكشفها • والامر بخلاف ذلك في النوع الثاني من الاخلاق ؛ أعني أخلاق العبيد • فاذا تصورنا أن المغلوبين على أمرهم ، والمظلومين ، والمعذبين ، والمقيدين ، وغير الواثقين من أنفسهم ، والذين يحسون بالعناء من أنفسهم ، اذا تصورنا أن هؤلاء قد وضعوا نظاما أخلاقيا ، فعلى أي نحو يكون العنصر المشترك بين

تقويماتهم الاخلاقية ؟ الأغلب أنهم سوف يعبرون عن تحد متشائم لموقف الانسان بوجه عام ، وربما حملوا على الانسان ذاته في حملتهم على موقفه . فنظرة العبيد لا ترضى بفضائل الاقوياء ، بل نلمس لديهم نوعا من الشك وعدم الثقة ، والعمق في العداء لكل ما تبجله أخلاق الاقوياء وتعده خيرا .

وربما اقتنع المرء نفسه بأن سعادة هؤلاء الأخيرين ليست سعادة حقيقية بدورها . وعلى العكس من ذلك ، يُلقى ضوء ساطع على كل الصفات التي تصلح لتخفيف أعباء الحياة عن عاتق المعذبين ، فتمجد الشفقة ، واليد التي تصلح لتخفيف أعباء الحياة عن عاتق المعذبين ، فتمجد الشفقة واليد المعينة المنقذة ، والقلق الرءوف ، والصبر ، والجد ، والتواضع ، والتزلف .

ذلك لأن هذه هي أكثر الصفات مجلبة للنفع ، وتكاد تكون هي الوسيلة الوحيدة للتخفيف من وطأة الحياة ، فأخلاق العبيد هي في أساسها أخلاق منفعة وفي ظلها يظهر التقابل المشهور بين ما هو خير وما هو شر : فتحت الشر تندرج القوة والخطورة ، وكل

ما هو مخيف ، عميق ، قوي ، لا يقبل الازدراء ٠

وفي أخلاق العبيد يثير الشرير الخوف ، أما في أخلاق السادة ، فالشخص المحمود هو الذي يثير الخوف ويرغب فيه ، بينما يظهر الرديء في صورة الشخص المحتقر ٠ ويبلغ التقابل قمته عندما يحدث ، نتيجة لاخلاق العبيد هذه أن ينظر الى الخير في هذه الاخلاق نظرة فيها لون من الاستخفاف ٠

وقد يكون ذلك اللون باهتا ، صادرا عن نية حسنة ، اذ أن الخير في طريقة تفكير العبيد هذه هو بالضرورة ذلك الشخص المأمون الجانب ، ففيه طيبة ، وغفلة ، وربما قدر من البله ، أي أنه هو المغفل ٠

وحينما تسود أخلاق العبيد تميل اللغة الى التقريب بين كلمتي طيب وأبله ٠ وفارق أساسي أخير ، هو أن الرغبة في الحرية ، والغريزة التي تجد في الشعور بالحرية سعادة ولذة ، تنتمي الى أخلاق العبيد بنفس الضرورة التي يكون بها التفنن في التبجيل والاخلاص والتحمس لها علامة ضرورية من علائم طريقة التفكير والتقويم الارستقراطية ٠

ومن هنا كان في وسع المرء أن يفهم بسهولة لم كان من الضروري أن يكون للحب من حيث هو انفعال ذلك شيء يتخصص فيه الأوروبيون ـ أصل رفيع : فمن المعروف أن ابتداعه يرجع الى شعراء جنوب فرنسا الفرسان ، أولئك الامجاد المبدعين ذوي الحسام الضاحك الذين تدين لهم أوروبا بالكثير ، وربما بنفسها » ·

ومن الطبيعي أن يتحدث نيتشه في كتاباته الاخلاقية عن وسيلة السلام الحقيقي فيقول (١) : « لا تعترف أية حكومة حالية بأنها تبقي على جيشها لكي ترضي شهوات العدوان كلما تملكتها ، وانما تتذرع دائما بحجة الدفاع · وانها لتهيب من أجل ذلك بالاخلاق التي تحض على الدفاع عن النفس ، وتتخذ منها معبرا عن وجهة نظرها ·

ولكن معنى ذلك هو أن يحتكر المرء لنفسه الاخلاقية ، وينسب الى جاره اللاأخلاقية ، اذ ينبغي أن ينظر اليه على أنه تواق الى العدوان والغزو ، ان كان من الضروري أن يفكر وطننا في وسيلة

---

(١) نيتشه : اشياء انسانية ، انسانية الى اقصى حد ف ٢ ف ٢٨٤ ·

للدفاع عن نفسه ·

أما ذلك الذي ينكر على نفسه شهوة العدوان ، تماما مثلما يفعل وطننا ، ويؤكد من جانبه أنه لا يبقي على الجيش الا لاغراض دفاعية ، ويلجأ الى نفس التبرير الذي استخدمنا جيشنا من أجله ، فانا نحمل عليه ، ونقول عنه انه دعي ومجرم وكاذب ، يريد أن ينقض على ضحية بريئة عزلاء دون أن يصادف منها أية مقاومة ·

وعلى هذا النحو تقف كل الدول بعضها بازاء البعض في وقتها الحالي : فهي تفترض مقدما سوء النية في جارها وحسن النية في ذاتها · غير أن هذا الافتراض ذاته أمر غير انساني ، لا يقل ضررا عن الحرب ذاتها ، ان لم يفقها في ذلك · بل انه هو في أساسه المقدمة الأولى للحرب ، وعلتها الاصلية ، اذ أنه ، كما قلنا، يؤدي الى تبادلالاتهام باللاأخلاقية مع الجار ، وبالتالي يبدو أنه يحض على سوء المقصد وسوء التصرف ·

فعلى المرء أن يحمل على فكرة الجيش بوصفه وسيلة للدفاع ، بنفس القوة التي يحمل بها على شهوة العدوان · وربما جاء يوم عظيم ، يهتف فيه

شعب امتاز على غيره في الحرب والظفر ، وفي التمرس على النظام العسكري والخبرة فيه ،وتحمل في هذا أكبر التضحيات ـ يهتف هذا الشعب بملء حريته قائلا « فلنحطم حسامنا ! » ـ ويقوم بتحطيم أداته الحربية حتى أعمق جذورها • فتحول المرء الى المسالمة في الوقت الذي يكون فيه أقدر من غيره على القتال •

هذا التحول اذا صدر عن سمو في الادراك والفهم ، كان وسيلة السلام الحقيقي ، الذي ينبغي أن يرتكز على سلامة القصد ، بينما يرتكز السلم المسلح المزعوم ، الذي يسود اليوم كل البلاد ، على سوء القصد ، ما دام المرء لا يثق بذاته ولا بجاره ، ولا يلقي بأسلحته ، مدفوعا بشعور يمتزج فيه البغض مع الخوف •

ان الفناء لأفضل من البغض والخوف ، وان الفناء لأفضل ثلاثا من أن يجعل المرء غيره يبغضه ويخافه • ومن الجلي أن ممثلي شعوبنا الاحرار يفتقرون الى فهم طبيعة الناس في الوقت المناسب ، والا لأدركوا أن جهودهم تضيع عبثا ، عندما يدعون الى خفض تدريجي للاسلحة العسكرية • وعلى

العكس من ذلك ، النوع من الاله الذي نحن في حاجة اليه · فشجرة المجد الحربي لا تجتث الا دفعة واحدة وبضربة كالبرق الخاطف . على أن البرق لا يأتي ، كما تعلمون ، الا من السحب ومن الأعالي » ·

نيتشه والعلاء على الذات :

تحدث نيتشه في كتابه هكذا تكلم زرادشت حول العلاء على الذات فقال : « أتسمونها ارادة الحقيقة، تلك القوة التي تدفعكم ، يا أعظم الحكماء ، وتبعث فيكم الحماسة ؟ انها الرغبة في جعل كل موجود قابلا للتفكير فيه : هذا هو الاسم الذي أطلقه على ارادتكم ! انكم تريدون أن تجعلوا كل موجود قابلا للتفكير فيه : اذ أنكم تشكون ـ ولكم الحق في ريبتكم هذه ـ في أنه قابل للتفكير فيه أصلا ·ولكن عليه أن يخضع وينحني لكم ـ هذا هو ما تبغيه ارادتكم · عليه أن يلين ، ويخضع للروح ، وكأنه مرآة وانعكاس لها · تلك هي ارادتكم ، يا أعظم الحكماء : فهي ارادة قوة ، حتى عندما تتحدثون عن الخير والشر ، وعن تقدير القيم · انكم لتريدون خلق العالم الذي يمكنكم أن تسجدوا له : ذلك هو أملكم الاخير ، وتلك هي نشوتكم القصوى·

أما غير الحكماء ، أي العامة ، فهم أشبه بالنهر، الذي يسبح عليه قارب • وفي القارب تجلس تقويماتكم ، وقد ازدانت وتنكرت •

لقد فرضتم ارادتكم وقيمكم على نهر الصيرورة: واستبان لي ما ظنه العامة خيرا وشرا ، فاذا هو ارادة قوة كامنة منذ القدم •

انكم أنتم ، يا أعظم الحكماء ، الذين أجلستم هؤلاء الضيوف في القارب ، وأضفيتم عليهم زينتهم وأسماءهم الجليلة ـ أنتم وارادتكم المتحكمة فيكم•

والآن ، يظل النهر يدفع قاربكم الى الامام ـ فهو مضطر الى ذلك • ولا أهمية للامواج التي تزيد وهي تنكسر على القارب ، وتصطدم به في عنف •فليس في النهر يكمن الخطر ، وليس فيه نهاية خيركم وشركم ، يا أعظم الحكماء ، وانما في تلك الارادة ذاتها ـ ارادة القوة ، ارادة الحياة الخالقة التي لا تنفذ •

ولكن ، لكي تفهموا كلمتي عن الخير والشر ، فاني قائل لكم كلمتي هذه أيضا عن الحياة وعن طبيعة الأحياء أجمعين •

لقد تعقبت الاحياء ، وسرت في أكبـــر الطرق وأصغرها ، لأصل الى معرفة طبيعتهم • وبرغم أن فم الاحياء قد ظل مغلقا ، فقد التقطت نظرتهـــم بمرآتي ذات المائة وجه ، حتى تتحدث الى عينهم ـ وقد تحدثت الي بالفعل •

انني كلما وجدت حيا ، سمعت أيضا حديـــث الطاعة • فكل ما هو حي مطيع • وهذه كلمتهـــا الثانية ، ان من لا يعرف كيف يطيع ذاته ، يأمره غيره ـ تلك هي شيمة الاحياء •

وهاك ثالث ما سمعت : ان الامر لأشـــق مـــن الطاعة • ليس ذلك لأن الامر يضع على عاتقه حمل كل المطيعين ، ولأن هذا الحمل يكاد يحطمه فحسب• وانما بدا لي كل أمر مغامرة ومخاطرة ، وكلما كان الحي آمرا ، كان في ذلك مخاطرا بنفســـه •

أجل ، حتى عندما يأمر ذاته ، فعليه هنا أيضا أن يتحمل عاقبة أمره ، وعليه أن يكون قاضيا ، ومنتقما ، وضحية لقانونه الخاص •

ولقد سألت نفسي : كيف يحدث ذلك ؟ ومـــا الذي يدفع الحي الى أن يطيع ويأمر ، ويكون مطيعا

حتى عندما يأمر ؟

فلتنصتوا الآن الى كلمتي ، يا أعظم الحكماء ! ولتختبروني بدقة ، لتروا ما اذا كنت قد تغلغلت في الحياة حتى قلبها ، وحتى أعمق أعمـــاق هذا القلب !

حيثما وجدت حيا ، وجدت ارادة قوة ، بل لقد وجدت في ارادة العبودية ذاتها رغبة للمرء في أن يكون سيدا ٠

فاستسلام الضعيف للقوي أمر تحضـــه عليـــه ارادته ، التي تريد أن تتحكم فيمن هم أضعف منه : فهذه هي اللذة التي لا يمكنها أن تزهد فيها ٠

وكما يستسلم الاصغر للاكبر ، حتـــى يشعـــر باللذة وبالقوة ازاء من هو أصغر منه ، كذلـــك يستسلم الاكبر بدوره ، ويبذل حياته من أجـــل القوة ٠ ذلك هو استسلام الاكبـــر ، الذي هـــو مغامرة ، ومخاطرة ، ومقامرة على الموت ٠

وحيثما تجد تضحية وتفانيـــا ونظرات حب ، فهناك أيضا تكون ارادة السيطرة ٠ ان الاضعف يتسلل بطرق ملتوية الى مكمن القوي ، حتى يصل

الى قلبه ، وهماك يسلبه القوة ٠

وهذا هو السر الذي أسرت به الحياة الي ، لقد قالت : تأمل ٠ انني ذلك الذي ينبغي عليه أن يعلو على ذاته دواما ٠

حقا انكم تسمونها ارادة انجاب ، أو غريزة الوصول الى الغايات ، والى الاعلى ، والابعد ، والاعقد ـ غير أن هذا كله شيء واحد ، وسر واحد ٠

انني لأوثر الهلاك على التخلي عن هذا الشيء الواحد ٠ والحق أنه حيثما يكون الهلاك وسقوط الأوراق ، فهناك تضحي الحياة بذاتها ، ـ من أجل القوة !

ولكن لم كان يتعين علي أن أكون صراعا ، وصيرورة ، وغاية ، ونقيض الغاية ؟ واأسفاه ! ان من يعرف ارادتي ، يعرف جيدا تلك الطرق الملتوية التي ينبغي عليها أن تسير فيها !

ان ما أخلقه ، وأحبه كل الحب ، ينبغي علي أن أعاديه ، وأعادي حبي ـ فهكذا تشاء ارادتي ٠

وحتى أنت ، أيها العارف ، لست الا طريقـا وموطئا لأقدام ارادتي ـ والحق ان ارادة القوة تسير بدورها في أعقاب ارادة الحقيقة فيك !

ان ذلك الذي أذاع كلمة ارادة الحياة قد جانبه الصواب : فليس ثمة ارادة كهذه !

ذلك لأن ما لا يحيا ، لا يريد ، أما ذلك الذي يحيا ، فكيف تتجه ارادته الى الحياة ؟ حقا ان الارادة لا تكون الا حيث تكون الحياة ـ غير أن هذه ليست ارادة حياة ، ولكن ، اعلم مني أنها ارادة القوة ·

ان الحي ليقدر أشياء عديدة فـوق تقديـره للحياة ذاتها ، غير أن ما يعبر عن نفسه خلال هذا التقدير ذاته هو ارادة القوة ·

هذا ما قالت لي الحياة ذات مرة ، ومن هنـا أمكنني ، يا أعظم الحكماء ، أن أحل لكم لغـز قلوبكم · انني لأقول لكم انه ليس ثمة خير أو شر دائم ! بل ان على كل منهما أن يعلو دواما على ذاته ·

انكم لتمارسون قوتكم ، يا مقدري القيم ، بما

تصدرونه من قيم ومن أقوال عن الخير والشر ـ ذلك هو حبكم الخفي ، وذلك هو النور ، والرجفة ، والفيض الذي يغمر نفوسكم

غير أن قيمكم تولد قوة أعظم ، وعلاء جديدا على الذات يكسر البيضة وقشرتها • والحق أن من كان عليه أن يكون خالقا في مجال الخير والشر ، عليه أولا أن يكون محطما وهادما للقيم •

ومن هنا فالشر الاكبر ينتمي الى الخير الاكبر ـ أعني الى الخير الخالق

فلنقصر حديثنا على هذه الامور ، يا أعظم الحكماء ، حتى لو أساء هذا الينا ـ ذلك لأن السكوت أسوأ . والحقائق التي لا نجهر بها تغدو سامة •

فليتحطم اذن كل ما تحطمه حقائقنا ! فأمامنا صروح عديدة نشيدها ! هكذا تكلم زرادشت •

نيتشه والمسجونون :

ذات صباح خرج المسجونون الى فناء العمل ، ولم يكن الحارس موجودا ، فمنهم من (١) استمر

---

(١) نيتشه : اشياء انسانية ، انسانية الى اقصى حد ، الهاكم وظله، ف ٨٤ •

في عمله ، جريا على عادته ، ومنهم من وقف خاملا، ونظر حوله يمناد • وهنا تقدم أحدهم وصاح « لتعلموا كما تشاءون أو لا تعلموا على الاطلاق : فالأمران سيان • ان ضرباتكم الخفية قد تكشفت ، وقد استمع اليها سجانكم أخيرا ، وسوف يصدر عليكم حكما رهيبا في اليوم التالي • انكم لتعرفونه، في جبروته وبطشه ، ولكن لتنتبهوا الآن الى مما أقوله لكم ، فقد أخطأتم فهمي حتى اليوم : فلست كما أبدو لكم ، وانما أنا أكثر من ذلك بكثير : فأنا ابن حارس السجن ، ولي عليه تأثير كبير • واني لقادر على أن أخلصكم • وأريد أن أخلصكم، ولكنني بالطبع لن أخلص منكم سوى أولئك الذين يؤمنون بأنني ابن حارس السجن ، أما الآخرون ، فليجنوا ثمرة عدم ايمانهم • وبعد قليل من الصمت ، قال مسجون قديم : ولكن ماذا يفيدك أن نؤمن بك أو لا نؤمن ؟ لو كنت ابنه حقا ، ولو كنت قادرا على أن تفعل ما تقول ، فلتقل له في حقنا كلمة طيبة ، فهذا حقا أخلق لك وأجدر — ولتدع مسألة الايمان وعدم الايمان جانبا ! •

وفي تلك اللحظة صاح شاب : بل انني لا أؤمن به ، فهو قد تشبث بشيء في رأسه فحسب • وانني

لأراهن على أننا سنظل هنا أياما ثمانية على حالنا هذا ، دون أن يعلم حارس السجن شيئا • وهنا قال آخر المسجونين ، وهو الذي لم تطأ قدمه ساحة العمل الا في تلك اللحظة : ولو كان قد علم شيئا في وقت ما ، فانه لم يعد يعلمه الآن : فقد مات حارس السجن فجأة • فهتف الكثيرون معا : « مرحى ! مرحى ! يا سيدنا الابن ! يا سيدنا الابن ! كيف حال ميراثك ! ربما كنا الآن مسجونين لديك أنت ؟ » ـ فقال المخاطب بلهجة ذليلة « لقد قلت لكم من قبل ، انني سوف أطلق سراح كل من يؤمن بأن أبي ما زال حيا » • ـ ولم يضحك المسجونون ، وانما هزوا أكتافهم ، وتركوه حيث هو •

نيتشه والسوبرمان :

يرى نيتشه ان الاخلاق لا تكمن في البساطة والضعف ، بل تختفي خلف القوة ، لذلك يجب أن يكون المجهود البشري ينطوي على تطوير أفراد أنفس وأقوى ، لأن الجنس البشري ، أو السوبرمان هو الهدف للارتفاع بالجميع نحو المثالية والكمال المطلق •

وأن ما ينهد اليه الانسان العاقل ، هو أن يقرر بذاته أهداف تقويم العنصر البشري : كون الجنس البشري بمفهوم نيتشه لا يتحسن ، وليس له حتى وجود ، انه تجريد ، فكل ما هو قائم وموجود انما هو مثل مستعمرة من نمل تتألف من أفراد ٠ وان مجلى الكل الكامل شديد الشبه بمشهد مصنع تجريبي ضخم ، حيث تتفوق بعض الاشياء في كل عصر ، بينما ينشل معظمها (١) ٠

وليس من شك بأن هدف جميع التجارب لا يتجسد في سعادة الجمهور انما في تحسين الانموذج، فان يترتب على المجتمعات أن تبلغ نهايتها لهو أمر أفضل من ألا يظهر النموذج ٠ فالمجتمع هو أداة لزيادة القوة وترقية شخصية الفرد ، كما وأن الجماعة ليست غاية في ذاتها ، اذن لأي غرض تكون الآلات ، اذا كانت فائدة الافراد تتمثل فقط في صيانتها ؟ فالآلات ـ أو المنظمات الاجتماعية ـ هل هي في غايات ذواتها ـ وهل هذه هي الكوميديا البشرية ؟

ويبدو أن نيتشه قد انطلق في حديثه عن خلق

---

(١) ويل ديورانت : قصة الفلسفة : ترجمة الشبياني ص ٧٢٣ ٠

نوع جديد من الانسان الفرد المتفوق والصاعد ، بصورة مقلقة ، من حماة العاديين من الناس . ويدين بوجوده للاستنسال المقصود والتربية المتعمدة والتغذية الحذرة أكثر مما يدين به لصدق الانتخاب الطبيعي . وذلك لأن العملية البيولوجية متحيزة ضد الفرد الاستثنائي ، فالطبيعة تكون أشد قسوة على أنفس ثمارها ، اذ أنها تحب أو بالأحرى تحمي العادي والوسط من مخلوقاتها ، ففي الطبيعة توجد رجعى دائمة للانموذج ، ولمستوى الجمهور ، وغلبة متواترة متكررة يحققها الاكثر عددا من الافضل نموذجا (١) .

ويعتقد نيتشه أن باستطاعة السوبرمان أن يبقى فقط بواسطة الاختيار البشري والبصيرة الاستنسالية والتربية المنبلة . اذن فيا لها من حماقة أن نسمح ، بعد ذلك ، للافراد الارقى بالزواج عن حب ـ فنسمح للابطال بالزواج من خادمات وللعباقرة بالاقتران بالخاطئات ! ويلاحظ نيتشه أن شوبنهور قد أخطأ ، فالحب ليس أمرا استنساليا ، وعندما يكون المرء عاشقا فينبغي ألا

(١) نفس المصدر ص ٧٣٤ .

نسمح له باتخاذ قرارات تؤثر في حياته باكملها ، فالطبيعة لم تسمح للانسان بأن يكون عاشقا وحكيما في الوقت ذاته · لذلك يجب علينا أن نعتبر عهود المشاق باطلة شرعا ، ونجعل من الحب مانعا قانونيا للزواج · فالأفضل ينبغي أن يتزوج الفضلى ، ويجب أن نترك الحب للدهماء · فليس القصد من وراء الزواج التناسل فقط ، بل ينبغي أن يكون التطوير والتحسين ·

ولهذا يقول نيتشه : « انك شاب وترغب في الزواج وفي أن يكون لك طفل · ولكنني أسألك هل أنت رجل يجرأ على الرغبة في أن يكون له طفل ؟ فهل أنت المنتصر ، هل أنت مخضع ذاتك وآمر حواسك وسيد فضائلك ؟ أو هل في رغبتك يتحدث الحيوان أو هل الضرورة هي التي تنطق ؟ أو هل هي الوحدة ؟ أو أنه خلافك نفسك ؟ كم كنت أرغب في أن يكون انتصارك وحريتك هما اللذان يتوقان الى طفل · فعليك أن تقيم تماثيل حية لانتصارك وتحررك · وعليك أن تبني ما وراء ذاتك · ولكن يتوجب عليك أولا أن تبني ذاتك بناء سليما جسدا ونفسا · وعليك ألا تترك لذاتك أن تتكاثر فقط . بل فلنزد فيها التكاثر علاء !

الزواج : على هذا النمط ادعوه بارادة اثنين لخلق ذاك الواحد الذي يكون أكثر من اللذين خلقاه • انني أدعو الزواج باحترام الواحد للآخر ، كما وأنه احترام أولئك الذين يريدون ارادة كهذه » •

وقد تكون النبالة مستحيلة بمفهوم نيتشه بدون مولد طيب (١) • فالذهن لا ينبل وحده ، بل الامر على العكس من ذلك ، اذ أن هناك شيئا ما يكون دائما مطلوبا ومستوجبا لتنبيل الذهن • اذن فما هو ذاك الشيء الذي نحتاج اليه ؟•• انه الدم •• (ولا أقصد بهذا القول الالقاب من لوردودي الخ •• فهذه جمل معترضة يستعملها الناس للحمير) • وبعد أن يتوفر للسوبرمان المولد الطيب والتربية الاستنسالية ، يدفع به الى مدرسة شديدة صارمة . حيث يطلب فيها الكمال كأمر مؤكد ، ولن يكون هذا الكمال حتى مدحا مستحقا ، وحيث يكون فيها القليل من الراحة والعديد العديد من المسؤوليات ، وحيث يعلمون الجسد المعاناة بصمت، ويدربون الارادة على الطاعة واصدار الاوامر • ولن يكون فيها هذر من حرية ! ولا اضعاف للصلب

---

(١) ويل ديورانت : قصة الفلسفة ص ٧٢٥ •

الجسدي والاخلاقي بالانغماس والحرية » ·

ومع ذلك فان مثل هذه المدرسة ستكون مدرسة حيث يتعلم فيها المرء الضحك من أعمق أعماق قلبه ، ويجب تصنيف الفلاسفة استنادا الى مقدرتهم على الضحك ، فان ذاك الذي يضج عابرا على الجبال يضحك مع جميع المآسي · ولن تكون هناك آية مرارة أخلاقية في هذه التربية ، وستكون هناك زهدية ارادة ولكن لن تعرف هذه التربية ادانة للجسد · « فلا تكففن عن الرقص أيتها الفتيات الجميلات ! فلم يأت اليكن أي لعب مفسد بعين حسود ··· وليس هناك من عدو للفتيات ذوات الكواحل الجميلة ·· » فحتى السوبرمان يجوز له أن يتذوق الكواحل الجميلة ·

وان انسانا هذا مولده وتلك تربيته سيكون ما وراء الخير والشر ، وهو لن يتردد في أن يمسي شريرا اذا استوجب قصده ذلك ، فهو سيكون جسورا غير هياب أكثر من كونه خيرا · فما هو الخير ؟ فان تك شجاعا فهذا خير · وما هو الخير ؟ انه كل شيء يزيد في احساس القوة ، في القوة بالذات في الانسان · وما هو الشر ؟ انه كل ما ينشأ من

الضعف (١) .

وقد يكون الطابع المميز للسوبرمان هو حب الخطر والنزاع شريطة أن يكون لهذين غرض وقصد ، فالسوبرمان من جانبه لن يطلب السلامة والنجاة ، بل سيترك السعادة للعدد الاضخم ، فزرادشت كان يتعشق كل مثل هذه الامور ، كما وكان يقوم بالأسفار البعيدة ، ولم يكن يحب أن يعيش بدون خطر . ولذلك فان كل حرب هي خيرة بالرغم من تفاهة أسبابها العامية في الازمنةالحديثة، فالحرب الخيرة تقدس أية علة أو سبب ، وحتى الثورة تكون خيرة ، ولا تكون كذلك في ذاتها ، وذلك لأنه ليس هناك من أي شيء أتعس وأشقى من سيادة الجماهير وغلبتها ، ولكن الثورة تكون كذلك لأن أزمنة الصراع تبرز عظمة الافراد الكامنة ، هؤلاء الافراد لم يكن لديهم قبل تلك الأزمنة الحافز والفرصة الكافيتان ، فمن عماء أو فوضى كهذه يتبدى الكوكب الراقص ، ومن اضطراب الثورة الفرنسية وهذرها خرج نابليون وتجلى ، كما وان من عنف عصر النهضة وشغبه

---

(١) ويل ديورانت : قصة الفلسفة ص ٧٣٦ .

خرجت فرديات جبارة كهاتيك ، وخرجت بفيض كذاك الذي بالكاد عرفت أوروبا مثله منذ ذاك الحين ، والذي لن تستطيع أن تحمله أطول من ذلك ·

الحيوية والعقل والكبرياء هذه هي التي تخلق السوبرمان ، ولكنها يجب أن تتناغم : فالانفعالات ستصبح قوى فقط عندما يقوم قصد ما بانتقائها وتوحيدها . هذا القصد الذي يصوغ من فوضى الرغائب قوة الشخصية · فالويل للمفكر الذي لا يكون البستاني بل تربة نباته ! ومن هو ذاك الذي يتبع حوافزه ودوافعه ؟ انه الضعيف : فهو يفتقر الى قوة النهي والمنع ، وهو لا يملك من القوة ما يكفي ليقول لا . أنه نشاز ومنحل · فان يقوم المرء بتهذيب ذاته وضبطها فهذا الامر هو أسمى الاعمال وأرقاها · فالانسان الذي لا يريد أن يكون فردا من الجماهير ، يحتاج فقط أن يكف عن كونه متهاونا ونفسه ولينا عليها · فان يكن للمرء قصد الذي يمكنه من أن يكون قاسيا على الآخرين ، ولكن قاسيا قبل كل شيء على نفسه ، وأن يكن له قصد يجعله يفعل كل شيء تقريبا ما عدا خيانة الصديق فهذان هما الطابع المميز النهائي للنبالة ، انهما

القانون الاول للسوبرمان (١) ٠

ونحن فقط بمشاهدتنا لانسان كهذا بوصفه هدفا لمجهوداتنا وثوابها يكون بمقدورنا أن نحب الحياة وأن نحيا تساميا : فيجب أن يكون لدينا هدف الذي من أجله يصبح بعضنا عزيزا لدى البعض ٠ فلنكن عظماء أو لنكن خدما للعظيم وأداة له ، فأي منظر جميل هو ذاك عندما قامت الملايين من الأوروبيين وجعلوا من نفوسهم وسيلة لغايات بونابرت وماتوا من أجله فرحين مبتهجين ، وخروا صرعى وهم يهتفون باسمه وينشدون ! ولربما كان بامكان أولئك الذين يفهمون منا أن يصبحوا أنبياء ذاك الذي لا نستطيع أن نكونه ، والذي بمقدورنا أن نمهد له سبيل مجيئه ، فباستطاعتنا ، وبغض النظر عن الاقطار والازمان، ومهما تكن حالتنا من البعد والانفعال ، أن نعمل معا من أجل هذه الغاية ٠ فزرادشت سيغني وينشد حتى في معاناته وألمه،وذلك اذا كان فقط باستطاعته أن يسمع أصوات هؤلاء المساعدين المستورين ، عشاق الانسان الأرقى هؤلاء ٠ فأنتم أيها الافراد

---

(١) ويل ديورانت : قصة الفلسفة ص ٧٣٧ ٠

المتوحدون في هذا العصر ، أنتم يا من تقفون اليوم منفردين ، انكم ستصبحون ، ذات يوم ، شعبا ، فمنكم أنتم يا من اخترتم أنفسكم سينشأ شعب مختار ، ومن هذا الشعب سيولد السوبرمان •

نيتشه والانحطاط :

واستنادا على ما قاله نيتشه بشأن السوبرمان يعتقد بأن الطريق اليه يجب أن تكون من خلال الارستقراطية • فالديمقراطية ـ هذا الجنون في احصاء الأنوف وعدها ، يجب أن تمحى قبل أن يفوتنا القطار • وان أولى الخطوات في طريقنا هذه لهي تدمير المسيحية وذلك فيما يتعلق بجميع الناس الأرقى •

فانتصار المسيح كان بداية الديمقراطية ، ولقد كان المسيحي الاول ، بأعمق غرائزه ، الثائر على كل امتياز ، فلقد عاش وكافح بصورة مستمرة في سبيل المساواة في الحقوق ، أما في الازمنة الحديثة فانهم سيرسلون به الى سيبيريا • وما القول القائل : ليكن أعظمكم خادما لكم ، سوى قلب لكل حكمة سياسية وعكس لكل سلامة عقل • والحق ان المرء

عندما يقرأ الاناجيل يشعر بأنه يعيش في جو رواية روسية ، فهي نوع من انتحالية من دوستوفسكي ، وفقط بين الأدنياء يمكن لهذه المفاهيم أن تضرب بجذورها عميقا ، وهي تعيش فقط خلال عصر ينحط فيه الحكام وينحلون ولا يعودون يحكمون • فعندما تربع نيرون وكركلا على العرش ، نشأ ذاك النقيض القائل بأن أدنى البشر لأرفع قيمة من ذاك الذي يجلس على القمة (١) •

وكما أن اجتياح المسيحية لأوروبا يمثل نهاية الارستقراطية القديمة ، كذلك فان اجتياح البارونات التيوتون المحاربين لها قد أحيا الفضائل الرجولية وبذر بذور الارستقراطيات الحديثة • فأولئك البارونات لم تكن تثقل كواهلهم الاخلاق ، فلقد كانوا متحررين من كل كابح اجتماعي ، وببراءة ضميرهم الحيواني الوحشي كانوا يعودون كوحوش متباهين مفتخرين من مجازرهم المرعبة ومن الاحراق والسلب والتعذيب ، ويعودون بغطرسة وتفاهم كما لو ان أعمالهم تلك لم تكن سوى هفوة طالب أو نزوة تلميذ • وأناس كهؤلاء

(١) ويل ديورانت : قصة الفلسفة ص ٧٤٠ •

هم الذين وفروا لألمانيا والبلدان الاسكندنافية وفرنسا وانكلترا وايطاليا وروسيا الطبقات الحاكمة •

وينبري نيتشه الى وصف هؤلاء القوم فيقول : « انهم قطيع من الحيوانات الكاسرة ، وقوم من غزاة وأسياد فاتحين ، وذوو تنظيم عسكري ، وقدرة على التنظيم ، وبلا ضمير ينشبون مخالبهم المرعبة بشعوب أكثر منهم بكثير عددا • هذا القطيع هو الذي أوجد الدولة • فالحلم ، الذي جعل الدولة تبدأ بالعقد ، قد تلاشى واضمحل ، فمن يستطيع أن يامر وأن يكن سيدا بطبيعته ، وأن يندفع الى المسرح عنيفا بفعله ، عنيفا بسلوكه ، فما شأنه وشأن العقود ؟ » •

ولقد أفسد هذه السلالة الحاكمة الرائعة ، أولا التسبيح الكاثوليكي بالفضائل الانثوية ، وأفسدتها ثانيا المثل العليا البيورتانية والعوامية ، مثل الاصلاح الديني العليا ، وأفسدها ثالثا تزاوجها وسلالة دونية ، وتماما عندما كانت الكاثوليكية تسيل في حضارة عصر النهضة الارستقراطية واللاأخلاقية ، قام عصر النهضة فسحقها باحياء

الصرامة والمهابة اليهوديتين • فهل هناك من أي انسان يفهم أو سيفهم أخيرا ما كانه عصر النهضة ؟ انه اعادة تقييم القيم المسيحية ، انه محاولة استخدمت جميع الوسائل وجميع الغرائز وكل عبقرية لتأمين النصر للقيم المعاكسة ، للقيم النبيلة ، ••• انني أرى أمامي امكانية سحرية تماما بمفاتنها ولونها الماجد ••• أرى سيزار بورجيا كبابا ••• هل تفهمونني ؟•

لقد أضعفت البروتستنتية والبيرة توقد الذهن الألماني ، ولتضف الآن اليهما الأوبرا الفاغنرية • ونتيجة لذلك ، فان الفرد البروسي هو اليوم أشد الاعداء خطرا على الحضارة وان مشاهدتي للانسان الالماني لتسبب لي عسر الهضم • واذا كان ، كما يقول غيبن ، ليس هناك من أي شيء مطلوب لفناء العالم سوى الزمن ، علما بأنه زمن طويل ، فكذلك ليس هناك من أي أمر مستوجب لتدمير فكرة مغلوطة في ألمانيا ما عدا الزمن ـ علما بأنه زمن أطول مع ذلك ••

وعندما هزمت ألمانيا نابليون ، فعملها هذا كان مدمرا للحضارة كعمل لوثر عندما هزم الكنيسة ،

فمنذ ذاك الحين فصاعدا أهملت ألمانيا (غوتاتها وشوبنهوراتها وبيتهوفانتها » وبدأت بعبادة « الوطنيين من أبنائها » ، « المانيا فوق الجميع » • أخشى أن يكون هذا النشيد هو النهاية للفلسفة الالمانية ، ومع ذلك يرى نيتشه أن في الالمان جدية وعمقا يبعثان على الامل بأنهم سينقذون أوروبا ، فللالمان من الفضائل الرجولية أكثر مما للفرنسيين أو الانكليز منها ، فهم يتمتعون بالمصابرة والصبر والاجتهاد ــ ومن هنا نشأت علمانيتهم وعلمهم وانضباطهم العسكري ، وانه لمن المبهج أن يرى المرء كيف أن أوروبا قاطبة قلقة من الجيش الالماني •

ويرى نيتشه انه اذا استطاعت القدرة الالمانية على التنظيم أن تتعاون وموارد روسيا الكامنة من المواد والبشر ، فعندئذ سيشهد العالم عصر السياسات العظمى • فنحن نتطلب تناميا مشتركا بين الاقوام الالمانية والسلافية ، كما ونتطلب أيضا أمهر الماليين ، أي اليهود ، كي نصبح أسياد العالم • اننا نتطلب اتحادا غير مشروط مع روسيا • باعتبار أنه ليس هناك من بديل لهذا الامر سوى التطويق والخنق •

وتتمثل المشكلة وألمانيا في بلاهة ذهن معينة تكفر عن صلابة الخلق هذه ، فالمانيا تفتقد تلك التقاليد الثقافية العريقة التي جعلت من الفرنسيين أنقى وأمهر الأمم الأوروبية .

ويقول نيتشه : انني أؤمن فقط بالثقافة الفرنسية ، وأعتبر كل شيء آخر غير هذه ، ويدعو نفسه بثقافة ، كسوء فهم ، فالمرء عندما يقرأ مونتين ولارشفكو وفوفنارج وشامفور يشعر بأنه مع هؤلاء الكتاب لاقرب من عصور العتاقة من كونه مع أية مجموعة أخرى ومن أي شعب آخر . ففولتير لهو سيد عظيم للعقل ، كما وان تاين لأول المؤرخين الاحياء ، وحتى الكتاب الذين جاءوا بعد هؤلاء كفلوبير وبورجيه وأناتول فرانس الخ ... هم أرفع بصورة لا متناهية من جميع كتاب أوروبا في صفاء الفكر واللغة . فأي وضوح ودقة مرهفة في هؤلاء الفرنسيين .

ويرى نيتشه أن النبالة الأوروبية في الذوق والسلوك هي من صنع فرنسا . لكنها من صنع فرنسا القديمة ، فرنسا القرنين السادس والسابع عشر ، فالثورة الفرنسية بتدميرها للارستقراطية

قد دمرت بطانة الثقافة ومربيها ، ويعتقد نيتشه بأن الروح الفرنسية الحالية هي روح واهنة شاحبة اذا ما قورنت بروح تلك في تلك العصور • وبالرغم من ذلك يرى أنه لا يزال في فرنسا بعض الصفات الجميلة ، ففي فرنسا يتأملون في جميع القضايا السيكولوجية والفنية بمهارة واتقان أكمل ، بصورة لا تقارن ، من اتقان الالمان ومهارتهم في دراسة هذه القضايا • وخلال البرهة ذاتها التي ارتفعت فيها ألمانيا فأمست قوة عظمى في السياسة العالمية ، أوجدت فرنسا لنفسها أهمية جديدة في الثقافة العالمية •

ويلاحظ نيتشه أن روسيا هي وحش أوروبا الاشقر • فشعبها يدين بجبرية عنيدة مستسلمة للقضاء والقدر ، الامر الذي يجعلها تبزنا ، حتى في هذا العصر ، نحن معشر الأوروبيين • ولروسيا حكومة قوية طليقة من البلاهة البرلمانية ، ولقد كانت قوة الارادة تتجمع وتتحشد هناك منذ زمن طويل ، وأنها تهدد الآن بالانطلاق ، ولن يعجب العالم اذ يجد روسيا قد أصبحت ، ذات يوم ، سيدة أوروبا ، وأن المفكر الذي يهمه (١) مستقبل

---

(١) ويل ديورانت : قصة الفلسفة : ص ٧٤٣ •

أوروبا سيحسب من جميع وجوه المستقبل ، حسابا لليهود والروس بوصفهم أضمن وأنسب عاملين في المسرحية العظمى ومعركة القوى ·

ولكن الايطاليين هم ، في نهاية المطاف أرهف وأشد الشعوب الموجودة عنفوانا ، فالانسان النبتة ينمو أقوى نمو في ايطاليا كما تبجح ألفيري · فحتى لأحط الايطاليين هيئة الرجولة وكبرياء أرستقراطية · وان لجندولي بندقي فقير شكلا أفضل دائما من قاض برليني ، وهو في النهاية حقا لانسان أفضل من ذاك ·

ويعتقد نيتشه أن الانكليز هم أسوأ الشعوب ، فهم الذين أفسدوا الذهن الفرنسي بالخداع الديمقراطي · فأصحاب الدكاكين والمسيحيون والأبقار والنساء وديمقراطيون آخرون ، هؤلاء جميعا يشكلون جماعة واحدة وتنتمي الفئة الواحدة منهم للاخرى · زد على ذلك أن النفعية والتعصبية الانكليزيتين هما الدرجة الدنيا من الثقافة الأوروبية وفقط في بلد تسوده المنافسة حتى قطع الرقاب ، يستطيع أي امرىء أن يدرك الحياة كصراع من أجل مجرد الوجود · وفقط في بلد

تضاعف فيه عدد أصحاب الدكاكين والسفن فبلغ ذاك الرقم الضخم حيث مكنه مـن التغلـب علـى الارستقــراطيــة ، يمكــن للنــاس أن ينسجــوا الديمقراطية ويلفقوها ، فهذه الديمقراطية هـي الهدية ، الهدية الاغريقية ، التي قدمتها انكلترا للعالم الحديث • فمن سينقذ أوروبا من انكلترا ، ويخلص انكلترا من الديمقراطية ؟

نيتشه والأرستقراطية :

ان الديمقراطية تعني مذرى ، وتعني السماح لكل جزء من نظام عضوي بأن يفعل تماما ما يريده ويرغب فيه ، وتعني انهيــار التلاحم والتوافــق وتتويج الحرية والفوضى ، وتعني عبادة العادية (حالة الوسط) وكراهية التفوق والامتياز ، وتعني استحالة وجود الرجــال العظــام ـ فكيـف يكــون بمقدور الرجال العظام الخضوع لتحقير الديمقراطية وقلة احتشام الانتخابات وفظاظاتها ؟ فأي حظ من النجاح سيكون لهؤلاء ؟ فما يكرهه الشعب ، كما تكره الكلاب الذئب ، انما هو الروح الحرة ، عدو جميع القيود والأغلال انه ، اللامتعبد ، الرجــل الذي لا يكون عضوا منتظما في الحزب • فكيــف

يستطيع السوبرمان أن ينشأ من تربة كهذه ؟ وكيف يكون بمقدور الأمة أن تصبح أمة عظيمة عندما يكون أعظم رجالها غير مستخدمين ومثبطي العزائم ولربما مجهولين ؟ ان مجتمعا كهذا يفقد الخلق ، فالتقليد يكون أفقيا بدلا من أن يكون عموديا • وليس السوبرمان بل رجل الاكثرية هو الذي يصبح المثل الأعلى والنموذج ، ويمسي كل شخص شبيها بكل شخص آخر غيره ، وحتى الجنسان يتقاربان • فالرجال يمسون نساء ، والنساء يصبحن رجالا •

اذن فان الانثوية هي النتيجة الطبيعية للديمقراطية والمسيحية • فهنا يطالعنا الرجل الصغير التافه ، ولذلك تحاول النساء أن يجعلن من أنفسهن رجالا • وذلك لأن فقط الرجل الذي فيه من الرجولة ما يكفي يستطيع أن ينقذ الانثى في المرأة • ولقد خلق ابسن ذاك الخادمة النموذجية الطاعنة في السن ، المرأة المحررة • والمرأة خلقت من ضلع الرجل ؟ عجيب هو فقر ضلوعي ! هذا ما يقوله الرجل • لقد فقدت المرأة بتحررها ، القوة والوقار ، فأين يوجد اليوم للنساء ذاك المركز أو المقام الذي كان لهن في عهود البوربون ؟ ان المساواة بين الرجل والمرأة لهي أمر مستحيل ، وذلك لأن

الحرب بينهما سرمدية خالدة ، وفي هذه الحرب لن يحل السلام بدون نصر ـ فالسلام يرفرف فقط عندما يصبح الواحد منهما أو الآخر هو السيد المعترف به ٠

وانه لأمر مخطر أن نحاول المساواة والمرأة ، فهي لن تكون قانعة بذلك ، فهي ترضى باخضاعها وذلك اذا كان الرجل رجلا ٠ وعلاوة على ذلك فان كمالها وسعادتها يكمنان في الأمومة ٠ فكل شيء في المرأة هو أحجية أو لغز ، ولكل شيء فيها جواب واحد ، انه الحمل والانجاب ٠ وليس الرجل سوى وسيلة للمرأة ، فغايتها تكون دائما الطفل ٠

ولكن ما الذي تكونه المرأة بالنسبة للرجل ؟٠٠ انها دمية محظرة ٠ وتتوجب تربية الرجل من أجل الحرب ، وتربية المرأة من أجل انجاب المحاربين ، وكل شيء غير هذا يكون طيشا وحماقة ٠ ومع ذلك فان المرأة الكاملة هي نموذج من بشرية أرقى من الرجل الكامل ، وهي شيء ما أندر أيضا ٠٠والرجل لا يستطيع أن يكون له من اللملف ما يكفي ازاء النساء ، وان قسما من توتر الزواج تكمن في تكميله للمرأة وتضييقه للرجل ٠ وعندما يخطب

الرجل المرأة ، يعرض عليها اعطاءها العالم بأسره، وعندما تتزوج منه يعطيها ما عرضه عليها ، وحالما يولد الطفل يتوجب عليه أن ينسى العالم ، وهنا تصبح ايثارية الحب أنانية العائلة . فالاستقامة والابتكار هما ترفان من مترف العزوبة .

وعندما يمسي الامر متعلقا بأعمق تفكير فلسفي، فعدئذ يصبح جميع الرجال المتزوجين محطا للريبة والشك . ويبدو لي أنه من السخف أن ينبغي على رجل اختار تقييم الوجود ككل ميدانا له ، أن يثقل كاهليه بهموم العائلة ، بتوفير الخبز والأمن والمركز الاجتماعي لزوجته وأطفاله . فالكثيرون من الفلاسفة قد توفوا حينما ولد لهم الوليد الاول . لقد هبت الريح نافذة من خلال ثقب مفتاح بابي وقائلة هيا تعال ! وفتح بابي ،بخبث دفتيه وقال فلتذهب ! لكنني كنت أضطجع مكبلا بأصفاد حبي لأطفالي . وتأتي مع الانثوية الاشتراكية والفوضوية ، فهذه جميعا من هودج الديمقراطية ، فاذا كانت المساواة في القوة السياسية أمرا عادلا ، فلماذا لا تكون هناك مساواة في القوة الاقتصادية ؟ ولماذا ينبغي أن يكون هناك قادة في كل مكان ؟ وهناك بعض الاشتراكيين الذين سيعجبون بكتاب زرادشت ، لكن

نيتشه لا يريد اعجابهم ولا يرغب فيه ، ولذا يقول : هناك البعض من الذين يبشرون بنظريتي في الحياة ، ولكنهم يبشرون في الوقت ذاته بالمساواة ••• ولا أريد للناس أن يخلطوا بيني وبين هؤلاء المبشرين بالمساواة ، وذلك لأن العدالة تصرخ من داخلي وتقول ليس الناس بمتساوين • وانني لا أرغب في أن يكون بيني وبينكم أي شيء مشترك، أنتم أيها المبشرون بالمساواة ، فان جنون العجز الطاغية يصرخ من داخل ذواتكم مطالبا بالمساواة• ان الطبيعة كما يرى نيتشه تكره المساواة وتمقتها، فهي تحب التمييز بين الافراد والطبقات والانواع•

لذلك فان الاشتراكية تناهض البيولوجيا : زد على ذلك ان عملية النشوء تستلزم استغلال النوع أو العنصر أو الطبقة الدونية ، أو استثمار القوي لمن هو دونه ، فالحياة بأكملها هي استغلال ،وتعيش غائيا على حياة أخرى ، فالسمك الكبير يمسك بالصغير ويلتهمه هذه هي القصة بكاملها •

ويرى نيتشه أن الاشتراكية هي الحسد : فالاشتراكيون يريدون شيئا ما نملكه • وعلى كل حال فان الاشتراكية هي حركة سلسلة القياد ، فكل

ما يكون ضروريا للسيطرة عليها هو ان نفتح ، بين فترة وأخرى ، الباب المسحور الفاصل بين الأسياد والعبيد وان نترك لقراء التذمر والاشياء أن يصعدوا الى الجنة • وليس الزعماء هم الذين ينبغي أن نخشاهم ونرهبهم بل أولئك الدونيون الذين يعتقدون بأن باستطاعتهم أن يتخلصوا بالثورة من التبعية التي تكون النتيجة الطبيعية لعجزهم وكسلهم ، ومع ذلك فان العبد يكون نبيلا فقط عندما يثور (١) •

وعلى العموم ، فان العبد يعتبره نيتشه أنبل من أسياده الحديثين ـ أي البرجوازيين • وانها لعلامة من علامات دونية حضارة القرن التاسع عشر أن ينبغي على رجل المال أن يكون قبلة لهكذا مقدار من العبادة والحسد • ولكن رجال الاعمال هؤلاء هم أيضا عبيد ودمى للرتابة وضحايا للعمل، وليس لديهم الوقت من أجل الفكر الجديدة ، فالتفكير أمر محرم بينهم ، كما وأن مباهج العقل ليست بمتناول أيديهم • ومن هنا ينشأ قلقهم وبحثهم الدائم عن السعادة ، فبيوتهم لا تكون أبدا

---

(١) ويل ديورانت : قصة الفلسفة ص ٧٢٨ •

مساكن ، وترفهم السوقي بدون ذوق ، وفي صالات عرضهم للوحات الزيتية الأصيلة قد ألصقوا على كل لوحة سعرهـا ، وتسلياتهم الشهوانية تبلـد الذهن أكثـر ممـا تنعشـه • فلتنظر الى هـؤلاء النفايات ، انهم يكسبون الثروات ، لكنهم بذلـك يصبحون أشد فقرا ممـا كانوا مـن قبـل ، وهم يسلمون بجميع كوابح الارستقراطية ولكن بدون أن يجدوا طريقها المثيب المفضي الى مملكة الذهن • فلتنظر كيف يتسلقون ، هؤلاء القردة السريعـي الحركة ! فالواحد منهم يتسلق فوق الآخر ، وهكذا يغوصون بذواتهم في الوحل والاعماق •••ولتشمم رائحة أصحاب الدكاكين المتننة ، ولتلاحظ التوام طموحهم وأنفاسهم الشريرة •

ويخلص نيتشه من تحليل هذه الامور الى القول بأن المجتمع سوف ينقسم الى ثلاث طبقات : المنتجين (الفلاحـين والبروليتاريا ورجـال الاعمـال) ، والرسميين (الجنود والموظفين) والحكام • وهذه الطبقة ستحكم ولكن أبناءها لن يكونوا موظفين في الحكومة ، فعمل الحكومة الواقعي هو عمل حقير • فالحكام سيكونون رجال دولة فلاسفة أكثر مـن كونهم موظفين • وسترتكز قوتهم على السيطرة

على الأمور المالية والجيش ، ولكنهم سيعيشون كالجنود أكثر من عيشهم كماليين وممولين • وسيكونون حماة أفلاطون بالذات ، فلقد أصاب أفلاطون حينما رأى في الفلاسفة أرقى البشر • وسيكونون رجالا مهذبين شجعانا وأقوياء ، منهم العلماء والقادة العسكريون معا ، وستوحد بينهم الدماثة وروح الجماعة : فهؤلاء الرجال تبقيهم ، بصورة صارمة ، الاخلاق والاحترام والعادة ، والعرفان ، وأكثر من ذلك الرقابة والغيرة المتبادلتان ، داخل الحدود ، وسيكونون مبتكرين مبدعين في التبصر والسيطرة على الذات والرقة والكبرياء والصداقة •

فهل ستكون هذه الارستقراطية طبقة ويكون سلطانها متوارثا ؟ نعم بمعظمها ستكون كذلك ، ولكن ستكون لها منافذ تفتح بين فترة وأخرى لادخال دم جديد اليها ، ولكن لا يوجد هناك من شيء يكون بمقدوره أن يلوث ويضعف الارستقراطية هكذا اضعافا وتلويثا كتزاوج أفرادها والطبقة الصعلوكة الثرية كما درجت الارستقراطية الانكليزية على ذلك ، فمثل هذا التزاوج هو الذي حطم أعظم هيئة حكومية شهدها العالم حتى اليوم•

وأعني بهذه مجلس الشيوخ الروماني الارستقراطي • فليست هناك « صدفة في المولد » فكل ولادة هي حكم تصدره الطبيعة على الزواج ، والرجل الكامل انما يولد بعد أجيال من الانتخاب والاعداد ، فأسلاف كل انسان قد دفعوا ثمن ما يكونه •

ولكن هل يؤذي هذا القول آذاننا العريقة في الديمقراطية شديد الأذى ؟ لكن تلك الاقوام التي لا تستطيع أن تحتمل هذه الفلسفة هي أقوام مقضي عليها بالهلاك ، أما تلك العناصر التي تعتبرها أعظم بركة ، فهي العناصر المكتوب عليها أن تصبح أسيادا للعالم • وفقط بمقدور أرستقراطية كهذه أن تكون لها الرؤيا والشجاعة لجعل أوروبا أمة لانهاء هذه القومية البقرية ، وهذه الوطنية الحقيرة • فلنكن أوروبيين أخيارا على شاكلة نابليون وغوتيه وبيتهوفن وشوبنهور وستندال وهايني • فلقد مضى علينا زمن جد طويل ونحن شظايا وهتامات متناثرة مما يمكن أن يكون كلا كاملا ، فكيف يمكن لحضارة عظمى أن تنمو في هذا الجو من الاهواء الوطنية وضيق الأفق الاقليمي ؟ ان زمن السياسات الحقيرة قد ولى وانقضى ، وحان أوان الارغام على اتباع السياسات العظمى • فمن

سيتبدى العنصر الجديد وسيتجلى الزعماء الجدد ؟
ومتى ستولد أوروبا ؟

زرادشت والتحول الثلاثي :

يعتبر كتاب « هكذا تكلم زرادشت » من أوفر مؤلفات نيتشه حظا وأقلها عرضة للنقد ، كونه غامضا تمسخ مميزاته كل مجهود يهدف الى ايجاد الاخطاء فيه • ففكرة العود الابدي ، رغم أنها فكرة مالوفة لدى بعض الفلاسفة ، غير أنها مجهود سحري يبذل لاستعادة الايمان والخلود •

وبالرغم مما يلاحظ في أفكار نيتشه من صلف وغرور ، فقد كان في أبحاثه ينهد دائما ولا هم له الا الوصول الى الحقيقة وايجاد انسان يتفوق على انسانيته بالمجاهدة والتغلب على العناصر والعادات والتقاليد وما توارثته الاجيال من العقائد الموهنة للعزم، محاولا اقامة مجتمع خاص بأفراده المتفوقين، لأن العالم الذي يتفوق على الانسانية انما يعود بعد هذا الجنوح الى بذل حبه للاصاغر والمتضعين •

ويلاحظ أن نيتشه يمهد في كتاباته الى ضرورة تحطيم كافة الوصايا والعادات والتقاليد والىوجوب

انكار الشريعة الادبية لاقامة شرعة جديدة ما وراء الخير والشر • ثم نراه يبحث بين الانقاض عن دستورا يصلح لانسانيته المتفوقة • ولعل كافة المعضلات الاجتماعية التي تسيطر على الانسانية جمعاء • لهذا ابتدع قصة زرادشت الذي اقتبس أفكاره من الوصايا والشرائع القديمة وصايا جديدة لحياته الجديدة فقال : « حذار من الطفرة في مسلك الفضيلة ، فعلى كل فرد أن يسير في طريقه وان جنح عن مسلك الآخرين ، فلا يطمحن الى بلوغ الذروة وحده ، اذ على كل سائر أن يكون جسرا للمتقدمين وقدوة للمتأخرين • وقد نتساءل أين هذه الوصية مما دعا اليه زرادشت في مفكراته نفسها حيث يقول : على أهل السيادة الانسانية المتفوقة أن يمهدوا سبل السعادة لمن هم دونهم بتضحية ملذاتهم وراحتهم ، وعليهم أيضا أن ينقذوا من لا يصلحون للحياة بالقضاء عليهم دون امهال •

وفي زرادشت يشرح نيتشه تحول العقل في مراحله الثلاث عن طريق الرمز فيعرفنا كيف استحال العقل جملا ، وكيف استحال الجمل أسدا ، وكيف استحال الأسد أخيرا فصار ولدا • فقال :

« ما أوفر الأحمال التي تثقل العقل الجلد الصلب وهو مجلي الوقار ، فان صلابته تتوق الى الحمل الثقيل بل الى أثقل الاحمال • يفتش العقل السليم عن أثقل الاحمال فينيخ كالجمل ظهره متوقعا رفع خير حمل اليه • ان العقل السليم ينادي الابطال قائلا : أي حمل هو الاثقل لأرفعه فتغتبط به قوتي ؟ أفليس أثقل الاحمال هو في الاتضاع لانزال العذاب بالغرور ؟ أفليس أثقلها أن يبدي الانسان اختلالا لتظهر حكمته جنونا ؟

أم أثقلها في تخلي الانسان عن مطلب حين يقترن هذا المطلب بالنصر ، أم في ارتقاء قمم الجبال لتحدي من يتحدى ؟ أم أثقلها في أن يتغذى الانسان باثمار السنديان والاعشاب ويتحمل مجاعة نفسه من أجل الحقيقة ؟ أم أثقلها في احتمال المرض وطرد العواد المعزين ، أم في محادثة الصم الذين لا يسمعون ولا يعون ما تريد ؟أم أثقلها فيالانحدار الى المياه القذرة اذا كانت الحقيقة فيها والرضى بملامسة الضفادع اللزجة والعقارب التي تقطر صديدا ؟

أم أثقلها في محبة من يحتقرنا وفي مد يدنا لمصافحة شبح يقصد ادخال الرعب الى قلوبنا ؟

ان العقل السليم يحمل ذاته جميع هذه الاثقال المرهقة ، وكالجمل الذي يسارع الى طريق الصحراء عندما يرفع الوقر عن ظهره هكذا يندفع هو أيضا نحو صحرائه وهنالك في الصحراء القافلة يتم التحور الثاني • يحسب العقل أسدا لأنه يطمح الى نيل حريته وبسط سيادته على صحرائه •

وفي هذه الصحراء يفتش عن سيده ليناصبه العداء حسب سيده السابق ، فهو يستعد لمكافحة التنين والتغلب عليه • ومن هو هذا التنين الذي يتمرد العقل عليه فلا يريد بعد الآن أن يرى فيه ربه وسيده ؟

ان التنين هو كلمة « يجب عليك » وعقل الأسد يريد أن ينطق بكلمة « أريد » ان كلمة « الواجب » تترصد الأسد على الطريق تنينا يدرع بآلاف الاصداف وعلى كل قطعة منها تتوهج بأحرف مذهبة كلمة « يجب عليك » • وعلى هذه الاصداف تشع شرائع ألف عبور التنين الاعظم يصيح قائلا ان جميع الشرائع تتوهج علي • كل ما هو سنة قد أوجد من قبل ، وبي تعمل جميع السنن الكائنة • والحق ان كلمة « أريد » يجب ألا ينطق بها أحد

بعد ! هكذا قال التنين ٠

فأية حاجة لكم أيها الأخوة بأسد العقل ؟ أفما يكفيكم الحيوان القوي الجليل الممنع بامتناعه ؟ من العبث أن تطمحوا الى خلق سنن جديدة ، ان الأسد نفسه ليعجز عن هذا الخلق اذ لا يسعه الا أن يستعد بتحرير نفسه لخلق جديد لأن قوته لن تتجاوز هذا الحد ٠

أيها الأخوة ، ان العمل الذي تحتاجون فيه الى الأسد انما هو تحرير أنفسكم والوقوف ببطولة الامتناع في وجه كل شيء حتى في وجه الواجب ٠ ذلك أيها الأخوة هو العمل الذي تحتاجون الى الاسد للقيام به ٠

ان الاستيلاء على حق ايجاد سنن جديدة يقضي بالجهاد العنيف على العقل الخشوع الصبور ، ولا ريب ان في هذا الجهاد قسوة لا يتصف بها الحيوانات المفترسة ٠

لقد كان العقل فيما مضى يتعشق كلمة « الواجب » كأنها أقدس حق له ، وقد أصبح عليه الآن أن يجد في هذا الحق المفدى ما يحدو به الى

التعسف والتوهم ، ليتمكن بارهاق عشته أن يستولي على حريته وليس غير الاسد من يقوم بهذا الجهاد ٠

ولكن ما هو العمل الذي يقدر عليه الطفل بعد أن عجز الاسد عنه ؟ ولماذا يجب أن يتحول الاسد الى طفل ؟ ذلك لأن الطفل طهر وتيسان ، لأنه تجديد ولعب وعجلة تدور على ذاتها فهو حركة البداية وعقيدة مقدسة ٠

أجل أيها الأخوة ، ان العمل الالهي للابداع يستلزم عقيدة مقدسة ، فان العقل يطلب الآن أن يجد دنياه ٠ لقد ذكرت لكم تحولات العقل الثلاثة فأوضحت كيف استحال العقل جملا وكيف استحال أسدا وكيف استحال أخيرا الى طفل ٠ هكذا قال زرادشت ، وكان في ذلك الحين مقيما في مدينة اسمها البقرة العديدة الالوان ٠

منابر الفضيلة :

وبلغ زرادشت خبر حكيم أطنب الناس في علمه ومقدرته في التكلم عن الكرى ، وعن الفضيلة فحبوه بالتكريم والتبجيل واتبعه عدد من الشبان أصبحوا دعامة لنبره العالي ، فذهب زرادشت

وجلس منهم أمام المنبر مصغيا الى الحكيم فكان يقول : مجدوا الكرى وعظموه لأن له المقام الاول وتحاشوا مرافقة من ساء رقادهم ومن استحوذ عليهم الأرق • ان اللص ليقف خاشعا أمام الكرى فيدلج في الليل مخرسا وقع أقدامه ولكن الساهر المجازف لا يتورع عن حمل بوقه • ليس بالسهل أن يعرف الانسان كيف يستسلم لسنة الكرى ، وليس الا لمن عرف كيف ينتبه طول النهار أن ينام ملء جفنيه • يجب عليك أن تقوم نفسك عشر مرات في النهار فتغنم خير التعب وتهيء المخدر لروحك • عليك أن تصالح نفسك عشر مرات في النهار لأنه اذا كان في قهر النفس مرارة فان في بقاء الشقاق بينك وبينها ما يزعج رقدك • عليك أن تجد عشر حقائق في يومك كيلا تضطر الى السعي وراءها في نومك فتبقى نفسك جائعة •

عليك أن تضحك عشر مرات في يومك لتكون مرحا كيلا تزعجك معدتك في ليلك والمعدة بيت الداء • قليل من يعرف هذا من الناس ، ولن يتمتع بالرقاد الهنيء الا من حاز جميع الفضائل • فاذا ما المرء أدى شهادة زور أو تلطخ بالزنا واذا هو

اشتهى خادمة قريبه فقد حرم وسائل الهناء في نومه •

غير أن المرء يحتاج فوق فضائله الى شيء آخر وهو أن يندفع الى الرقاد بفضائله نفسها في الزمن المناسب •

ان من الفضائل من هي كالغانيات ، فأقم بينهن حائلا كيلا ينتهين الى عراك تكون أنت ضحيته •

ليكن سلام بينك وبين ربك وبين الأقربين ، فلا نوم هنيء بدون هذا السلام • وسلم شيطان جارك أيضا لئلا يزودك في رقادك •

أكرم السلطة واخضع لها حتى ولو كانت هذه السلطة عرجاء • ان ذلك ما يقتضيه النوم الهنيء•

وما أنا بالجاني اذا كان يحلو لسلطة أن تسير متعارجة •

ان خير الرعاة من يقود قطيعه الى المروج الخضراء ، ذلك ما يقتضيه الرقاد الهنيء • لا أطلب كثيرا من المجد ولا وفيرا من المال وكلاهما يؤدي الى

الاضطراب ، ولكن المرء لا ينام هنيئا ما لم يكن له شيء من الشهرة ولديه شيء من المال •

أفضل أن يزورني القليل من الناس على أن يرتاد مسكني عشراء السوء ، وهذا العدد القليل يجب عليه أن لا يطيل السمر عندي لئلا يعكر صفو رقادي •

تسرني مجالسة البله لأنهم يجلبون النعاس ، ولشد ما يغتبطون عندما نحبذ حماقاتهم ونشهد باصاباتهم •

على هذه الوتيرة يقضي فضلاء الناس نهارهم • أما أنا فانني اذا أمسى المساء أحترس من أن أراود النفاس لأنه سيد الفضائل ولا يرتاح الى تحرش لساهرين •

وتحت جنح الظلام استعرض ما فكرت فيه وما عملته في يومي فانطوي على نفسي كالحيوان الصبور أسائلها عما قهرت به أميالها عشر مرات وعما عقدت به الصلح مع ذاتها عشر مرات ، وعن الحقائق لعشر والمسرات العشر التي أفعمت بها •

وبينما أكون مستغرقا تهزني الاربعون خاطرة ،

يستولي النعاس علي فجأة ، وهكذا يسودني الكرى سيد الفضائل دون أن أتوجه بدعوة اليه •

يشغل النعاس جفني فيغمضان ، ويلمس فمي فيبقى مفتوحا •

انه يدلف الي كلص محبوب فيسرق أفكاري وأبقى أنا منتصبا كعمود من خشب ، ثم لا تمر لحظات حتى أنطرح ممددا على فراشي •

وبعد أن أصغى زرادشت الى هذه الاقوال يقرع الحكيم بها الاسماع تملك ضحكه وأشرق نور في جوانب نفسه فناجاها قائلا :

يتراءى لي أن هذا الحكيم قد جن كخواطره الاربعين •

ولكنه جد خبير بحالات الكرى • فما أسعد من يجاور هذا الحكيم ! لأن مثل هذا النعاس شديد الانتقال بالعدوى حتى الى ما وراء الجدران •

ان شيئا من السحر يفوح من منبره العالي ، وما يجتمع هذا العدد من الشبان عبثا حول خطيب الفضائل •

ان قاعدة هذا الحكيم انمـا هي ـ اسهـروا لتناموا ـ وفي الحقيقة لو لم يكن للحياة معناهـا ووجب أن أختار لها حكمة لا معنى لها لما كنت أجد أفضل من هذه القاعدة ٠

لقد أدركت الآن ما كان يطلب الناس قبل كل شيء عندما كانوا يفتشون عن أوليات الفضائل ، انهم كانوا يطلبون النوم الهنيء والفضائل التـي يتجلى على مفرقها تـاج المخدرات ، وما كانـت الحكمة في عرف حكماء المنابر ، وقد نالوا الاعجاب والثناء ، الا قاعدة نوم لا تقلقه الاحلام ، انهم لم يكتشفوا معنى أفضل من هذا المعنى للحياة ٠

وكم في أيامنا هذه مـن أناس يشبهون هـذا الواعظ في دعوته الى الفضيلة غير أنهم أقل اخلاصا منه ٠ ولكن هذا الزمان لم يعد زمانهم ولن يطول وقوفهم والكرى يراود أفكارهم فهم عـن قريـب سيمددون ٠ طوبى لمن دب الى عيونهم النعـاس ! انهم عما قريب سيرقدون ٠ هكذا تكلم زرادشت ٠

الماخوذون بالعالم الثاني :

وترامى زرادشت يومـا بخياله الى مـا وراء

الانسانية ، فتراءى هذا العالم لديه كما يراه جميع المأخوذون بالعالم الثاني خليقة رب متألم مضطرب، فقال : رأيت الدنيا كأنها أحلام نائم أبدعت أبخرة جوالة متلونة ترتد عنها ألوهية النفس على غير رضى • وقد لاح لي الخير والشر والافراح والاحزان ، وذاتي وذات الآخرين • كما تلوح الابخرة الملونة لعين المبدع ، ولعل المبدع أراد أن يتحول ببصيرته عن ذاته فاوجد العالم •

لا ينتشي المتألم بمسرة أشد من مسرته حينما يعرض عن آلامه وينسى نفسه • هكذا تكشف لي العالم يوما فرأيت مسرته ثملا ونسيانا وهو يتقلب أبدا في نقائصه معكسا للتناقض الابدي •

نظرت الى العالم يوما فلاح لي مسرة مسكرة يتمتع بها مبدع غير كامل خلقته أنا ، فجاء ككل أعمال البشر جنة بشرية •

ما كان هذا الاله الا انسانا ، بل جزءا من شخصية انسان ، لأنه نشأ من ترابي ومن لهبي • انه لشبح من هذا العالم لا من وراء هذا العالم •

شهدت ذلك أيها الأخوة ، فتفوقت على ذاتي

بآلامي ، وحملت ترابي الى الجبل حيث أوقدت نارا تشع نورا فاذا بالشبح يتوارى مبتعدا عني ·

فاذا ما آمنت الآن بمثل هذا الشبح ، فلا يكون ايماني توجعا وصغارا ، ذلك ما أقوله للمأخوذين بالعالم الثاني ·

ما أوجدت العوالم الأخرى في هذا العالم سوى الآلام والشعور بالعجز ، ذلك ما أوجدته تلك العوالم فأوجدت معه هذا الجنون السريع الزوال بسعادة ما ذاقها من الناس الا أشدهم آلاما ·

ان المتعب الذي يطمح الى اجتياز أبعد مدى بطفرة واحدة ، بطفرة قاتلة ، وقد بلغت به مسكنته وجهالته حدا لا يستطيع عنده أن يريد ، انما هو نفسه مبدع جميع الآلهة وجميع العوالم الأخرى ·

صدقوني أيها الأخوة ان الجسد قد قطع رجاءه من الجسد ، فغدا يجس بأنامله مواضع الروح المضللة ، وذهب يتلمسها من وراء الحواجز القائمة على مسافة بعيدة · صدقوني أيها الأخوة ، ان الجسد قد تملكه اليأس من الارض فسمع صوتا

يناديه من قلب الوجود ، فأراد أن يخترق برأسه أطراف الحواجز ، بل حاول العبور منها الى العالم الثاني ، غير ان العالم الثاني جد خفي عن الناس لأنه بتخنثه وابتعاده عن كل صفة انسانية ليس الا سماء من العدم • ان قلب الوجود لا يخاطب الناس اذا لم يكلمهم كانسان •

والحق أنه ليصعب علينا اثبات الوجود واستنطاقه • أجيبوا أيها الأخوة ، أفما يلوح لكم ان أغرب الأمور أثبتها دليلا ؟

أجل : ان هذه الذات على ما فيها من تناقض واختلال تثبت بكل جلاء وجوده ، فتتبدع وتعلن ارادتها لتضع المقاييس وتعين قيم الاشياء ، وما تطلب هذه الذات في اخلاصها الا الجسد حتى في حالة استغراقه في أحلامه وتحفزه للطيران بأجنحته المحطمة •

ان هذه الذات تتدرب على الافصاح عن رغباتها باخلاص ، وكلما ازدادت تدربا ألهمت البيان للاشادة بالجسد وبالأرض •

لقد علمتني ذاتي عزة جديدة أعلمها الآن

للناس : علمتني الا أخفي رأسي بعد الآن في رمال الأشياء السماوية ، بل أرفعها رأسا عزيزة ترابية تبتدع معنى الارض . انني أعلم الناس ارادة جديدة يتخيرون بها السير على الطريق التي اجتازها الناس عن غباوة من قبلهم ، أعلمهم أن يطمئنوا الى هذه الطريق فلا تنزلق أرجلهم عنها كما انزلقت أرجل الاعلاء المتهكمين ، وما هؤلاء الا من ابتدعوا الاشياء السماوية واخترعوا قطرات الدماء المراقة لافتداء البشر . على ان هذه السموم التي أخذوا بلذتها ورهبتها لم يستخرجوها الا من الجسد ومن الارض .

لقد شاءوا الفرار من الشقاء وتراءت لهم الكواكب بعيدة صعبة المنال فوجموا يدفعون بالزفرات قائلين : واأسفاه ! لم لا تنفتح أمامنا سبل في السماء ننسحب عليها الى وجود آخر والى سعادة أخرى ؟

في ذلك الحين اخترعوا أوهامهم وكؤوسهم الصغيرة المترعة بالدماء ... وحسب هؤلاء الناس في عقوقهم أنهم فازوا بالنعيم بعيدا عن جسدهم وعن الارض ، وتناسوا أن تنعمهم ورعشة ملذاتهم

انما نشأت من جسدهم ومن هذه الارض ٠

ان زرادشت ليشفق على الاعلاء فلا يغضب لما أوجدوه من وسائل السلوان ولا يتمرمر لأنهم عقوا جسدهم وأرضهم ، بل هو يرجو لهم الشفاء والتغلب على أنفسهم ليوجدوا لهم أجسادا أرقى من أجسادهم ٠

ان زرادشت لا يغضب أيضا على الناقة التي تحن الى وهمها فتذهب في منتصف الليل لتطوف بقبر الهها ، ولكنه لا يرى في دموع هذه الناقة الا أثر المرض والجسم المريض ٠

لقد وجد في كل زمان كثير من المرضى المستغرقين المتشوهين فهم يكرهون الى حد الهوس كل من يطلب المعرفة ، ويكرهون أبسط الفضائل وهي فضيلة الاخلاص ٠

انهم يلتفتون دائما الى الوراء ، الى الأزمنة المظلمة ، اذا كان للجنون وللايمان حلتهما الخاصة ، فكان الاله يتجلى في هوس العقل ، وكانت كل ريبة خطيئة ٠

لقد عرفتهم جد المعرفة ، أولئك المتجلين على

صورة الله ومثاله ، فتيقنت أن جميع رغباتهم تتجه الى أن يؤمن الناس بهم وأن يصبح كل شك فيهم خطيئة ، وما فات مداركي ذلك الايمان الذي يدعون رسوخه فيهم • فانهم لا يؤمنون لا بالعوالم الأخرى ولا بقطرات الدماء تفتدي العالم ، بل هو كسائر الناس يعتقدون بالجسد ، ويرون أن أجسادهم نفسها هي الكائن الواجب الوجود •

غير أن هؤلاء الناس يرون الجسد كائنا معتلا ، فيودون أن يبارحوا جلودهم وذلك ما يدفعهم الى الاصغاء للمبشرين بالموت وما يهيب بهم الى التبشير بالعوالم الأخرى •

أما أنتم ، يا اخوتي ، فاصغوا الى صوت الجسد الذي أبل من دائه لأن هذا الجسد يخاطبكم بصوت أنقى وأخلص من تلك الاصوات •

ان الجسد السليم يتكلم بكل اخلاص وبكل صفاء ، فهو كالدعامة المربعة من الرأس حتى القدم وليس بيانه الا افصاحا عن معنى الارض • وهكذا تكلم زرادشت •

الملذات والشهوات :

اذا كان لك فضيلة يا أخي ، وكانت هذه الفضيلة خاصة بك فانك لا تشارك فيها أحدا سواك · ولا ريب في أنك تريد أن تدعوها باسمها وتداعبها لتتسلى بها ولكنك بهذا أشركت بها الناس بما أطلقت عليها من تعريف ، فأصبحت أنت وفضيلتك مندغمين في القطيع ·

خير لك يا أخي أن تقول : ما تلذ به روحي وتتعذب به يتعالى عن الايضاح ، ويجل عن أن يسمى ، وهذا العجز عن ادراكي له يخلق المجاعة في أحشائي ·

لتكن فضيلتك أسمى من أن تستخف بالأشياء عند تحديدها ، واذا ما اقتحمت هذا التحديد ، فلا تستحي من أن تتلفظ به تمتمة ، فقل وأنت تتمتم :

ان هذا هو خيري الذي أحب ، ان هذا ما يثير اعجابي ، فأنا لا أريد الخير الا على هذه الصورة · لا أريد هذه الاشياء تبعا لارادة رب من الارباب ولا عملا بوصية أو ضرورة بشرية ، فأنا لا أريد أن

يكون لي دليل يهديني الى عوالم عليا وجنات خلود ...

قل : ما أحب سوى فضيلة هذه الارض ، لأن ما فيها من الحكمة قليل ، وأقل منه ما فيها من صواب متفق عليه ، ان هذا الطير قد بنى عشه على مقربة مني ، لذلك أحببته وعطفت عليه ، وها هو ذا الآن يحتضن عندي بيضه الذهبي . على هذه الوتيرة تكلم وأنت تتمتم ممتدحا فضيلتك .

لقد كان لك فيما مضى شهوات كنت تحسبها شرورا ، أما الآن فليس فيك الا الفضائل ، وقد نشأت هذه الفضائل من شهواتك نفسها ، لأنك وضعت في هذه الشهوات أسمى مقاصدك فتحولت فيك الى فضائل وملذات هي منك ولك ، ولسوف ترى جميع شهواتك تستحيل الى فضائل ، ولسوف ترى كل شيطان فيك يستحيل ملاكا حتى ولو كنت ممن يستسلمون للغيظ والشهوات وكنت من فئة الحاقدين المتعصبين .

لقد كانت الكلاب المفترسة تسكن دهاليز من قبل ، فها هي ذي الآن أطيار مغردة . لقد استقطرت

السماء بلسما من سمومك وحلبت ناقة الأوصاب وأنت الآن تكرع لذيذ درها ٠

لن يخلق منك شر بعد الآن ، غير ان هناك شرا قد ينشأ من تخاصم فضائلك ٠ فاصغ الي ، يا أخي ! انك اذا شعرت بسعادة فما يكون ذلك الا لفضيلة مستقرة فيك وهي تسهل اجتياز الصراط عليك ٠

انها لمزية أن تكون للانسان فضائل عديدة ، غير أن تعدد الفضائل يرمي بالانسان الى أشقى الحظوظ ، وكم من مجاهد أرهقه النزل في ساحات الفضائل فتوارى لينتحر في الصحراء ٠

اذا كنت ترى المعارك والحروب شرورا فاعلم يا أخي انها شروط لا بد منها لأن للحسد والريبة والشتيمة مقامها المحترم بين فضائلك نفسها ٠ تبصر تر ان كلا من فضائلك تطمح الى المقام الأسمى وتطمح في الاستيلاء على جميع أفكارك لتستبعدها وتحصر بها وحدها كل ما في غضبك وبغضائك وحبك من قوة ٠

ان كلا من فضائلك تحسد الأخرى ، والحسد

هائل مريع يتناول الفضائل أيضا فيبيدها • ان من يحيط به لهيب الجسد تنتهي به الحال الى ما تنتهي العقرب اليه فيوجه حمته المسمومة الى نحره •

أفما رأيت ، يا أخي ، من الفضائل من تشتم نفسها وتنتحر ؟

ليس الانسان الا كائنا وجب عليه أن يتفوق على نفسه ، لذلك حق عليك يا أخي ، أن تحب فضائلك لأنك بها ستفنى • هكذا تكلم زرادشت •

حشرات المجتمع :

سارع الى عزلتك ، يا صديقي ، فقد أورثك الصداع صخب عظماء الرجال ، وآلمتك وخزات صغارهم • ان جلال الصمت يسود الغاب والصخور أمامك ، فعد كما كنت شبيها بالدوحة التي تحب ، الدوحة الوارفة الظل المشرفة على البحر مصغية في صمتها الى هديره •

على أطراف حقول العزلة تبدأ حدود الميادين حيث يصخب كبار الممثلين ويطن الذباب المسموم •

لا قيمة لخير الاشياء في العالم ان لم يكن لها من يمثلها ، والشعب يدعو ممثليه رجالا عظاما ، انه يسيء فهم العظمة المبدعة ، فيبتدع من نفسه المعاني التي يجمل بها ممثليه والقائمين بالأدوار الكبرى على مسرح الحياة ٠

ان العالم يدور دورته الخفية حول موجدي السنن الجديدة ٠ وحول لاعبي الأدوار على مسرح الحياة يدور الشعب وتدور الامجاد ، وعلى هذه الوتيرة يسير العالم ٠

ان للاعب الأدوار ذكاءه ، ولكنه لا يدرك حقيقة هذا الذكاء لانصباب عقيدته الى كل طريقة توصله لخير النتائج والى كل أمر يدفع بالناس الى وضع ثقتهم به ٠ غدا سيعتنق هذا الرجل عقيدة جديدة، وبعد غد سيستبدل بها أجد منها ٠ ففكرته تشبه الشعب تذبذبا وتوقدا وتقلبا ٠

ان ممثل الشعب يرى بالتحطيم برهانه ،وبايقاد النار حجته ، وباراقة الدماء أفضل حجة وأقوى دليل ٠ انه ليعتبر هباء كل حقيقة لا تسمعها الا الآذان المرهفة ، فهو عبد الآلهة الصاخبة في الحياة ٠

ان ميدان الجماهير يغص بالغوغاء المهرجين ، والشعب يفاخر بعظماء رجاله فهم أسياد الساعة في نظره • ولكن الساعة تتطلب السرعة من هؤلاء الأسياد ، فهم يزحمونك ، يا أخي ، طالبين منك اعلان رفضك أو قبولك ، والويل لك اذا وقفت حائرا بين « نعم » وبين « لا » •

واذا كنت عاشقا للحقيقة فلا يغرنك أصحاب العقول الرعناء المتصلبة ، وما كانت الحقيقة لتستند يوما الى ذراع أحد هؤلاء المتصلبين •

دع المشاغبين وارجع الى مقرك ، فما ميدان الجماهير الا معترك يهدد سلامتك بين خنوع «نعم» وتمرد « لا » • ان تجمع المياه في الينابيع لا يتم الا ببطء ، وقد تمر أزمان قبل أن تدرك المجاري ما استقر في أغوارها •

لا تقوم عظمة الا بعيدا عن ميدان الجماهير وبعيدا عن الامجاد ، وقد انتحى الاماكن القصية عنها من أبدعوا السنن الجديدة في كل زمان •

اهرب ، يا صديقي ، الى عزلتك • لقد طالت اقامتك قرب الصعاليك والأدنياء • لا تقف حيث

يصيبك انتقامهم الدساس وقد أصبح كل همهم أن ينتقموا منك . لا ترفع يدك عليهم فان عددهم لا يحصى ، وما قدر عليك أن تكون صيادا للحشرات . انهم لصغار أدنياء ولكنهم كثرة .ولكم أسقطت قطرات المطر وطفيليات الاعشاب من صروح شامخات . ما أنت بالصخرة الصلدة ولشد ما فعلت بك القطرات ، ولسوف يتوالى ارتشافها عليك فتصدعك وتحطمك تحطيما .

لقد أرهقتك الحشرات السامة فخدشت جلدك وأسالت منه الدماء ، وأنت تتحصن بكبرك لتكظم غيظك ، وهي تود لو أنها تمتص كل دمك معتبرة أن من حقها أن تفعل لأن دمها الضعيف يطلب دما ليتقوى ، فهي لا ترى جناحا عليها اذ تنشب حمتها في جلدك . ان هذه الجروح الصغيرة لتذهب بالألم الى مدى بعيد في حسك المرهف ، فتتدفق صديدا يرتعيه الدود . أراك تتعالى عن أن تمد يدك لقتل هذه الحشرات الجائعة ، فحاذر أن يجول سم استبدادها في دمك .

ان هؤلاء المشاغبين يدورون حولك بطنين الذباب ، فهم يرفعون أناشيدهم تزلفا اليك

ليتحكموا في جلدك ودمك • انهم يتوسلون أليك ويداهنونك كما يداهنون الآلهة والشياطين ، فيحتالون عليك بالملاطفة والثناء ، وما يحتال غير الجبناء •

انهم يفكرون بك كثيرا في سرهم فيلقون الشكوك عليك ، وكل من يفكر الناس به كثيرا تحوم حوله الشبهات •

انهم يعاقبونك على كل فضيلة فيك ولا يغتفرون لك من صميم فؤادها الا ما ترتكب من الخطأ • انك لكريم وعادل ، لذلك تقول في قلبك : ان هؤلاء الناس أبرياء وقد ضاقت عليهم الحياة • ولكن نفوسهم الضيقة تقول في نجواها : ان كل حياة عظيمة انما هي حياة مجرمة • ويشعر هؤلاء الناس بأنك تحتقرهم عندما تشملهم بعطفك ، فيبادلونك عطفك بالسيئات • انك لتصدعهم بفضيلتك الصامتة فلا يفرحون الا عندما يساهي تواضعك فيستحيل غرورا • ان الناس يطمحون بالطبع الى الهاب كل عاطفة تبدو لهم ، تحذر الصعاليك لأنهم يحسون بصغارهم أمامك فيتحمسون حتى ينقلب احساسهم كرها وانتقاما •

أفما شعرت أنهم يخرسون عندما تطلع عليهم ، فتبارحهم قواهم كما يبرح الدخان النار اذا اهمدت ؟

أجل يا صديقي ، ما أنت الا تبكيت في ضمائر أبناء جلدتك لأنهم ليسوا أهلا لك ، فهم لذلك يكرهونك ويودون امتصاص دمك ·

ان أبناء جلدتك لن يبرحوا كالحشرات المسمومة لأن العظمة فيك ستزيد أبدا في كرههم لك ·

الى عزلتك ، يا صديقي ، الى الأعالي حيث تهب رصينات الرياح ، فانك لم تخلق لتكون صيادا للحشرات · هكذا تكلم زرادشت ·

في الجزر السعيدة :

ها ان التين يتساقط عن أشجاره عطر النكهة حلو المذاق وقشوره الحمراء تتشقق بسقوطها ، وأنا هو ريح الشمال يهب على هذه الاثمار الناضجة · ان تعاليمي تتساقط اليكم أيها الصحاب كمثل هذه الاثمار فتذوقوها الآن عند ظهيرة من أيام الخريف وقد صفت فوقكم السماء ·

سرحوا أبصاركم فيما حولكم من خيرات الارض ثم مدوا بها الى آفاق البحر البعيد ، فليس أجمل لمن فاض رزقه من أن يتطلع الى الابعاد ٠

لقد كان الناس يتلفظون باسم الله عندما كانوا يسرحون أبصارهم على شاسعات البحار ، أما الآن فقد تعلمتم الهتاف باسم الانسان المتفوق ٠

ان الله افتراض وأنا أريد ألا يذهب بكم الافتراض الى أبعد مما تفترض ارادتكم المبدعة ٠ أفتستطيعون أن تخلقوا الها ؟ اذن اقلعوا عن ذكر الآلهة جميعا ، فليس لكم الا ايجاد الانسان المتفوق ٠

ولعلكم لن تكونوا بنفسكم هذا الانسان ولكن في وسعكم أن تصبحوا آباء وأجدادا له ٠ فليكن هذا التحول خير ما تعلمون ٠

ان الله افتراض وأنا أريد ألا يتجاوز بكم الافتراض حدود التصور ، فهل تستطيعون أن تتصوروا الها ؟ فاعرفوا من هذا أن واجبكم هو طلب الحقيقة فلا تطمحوا الى ما لا يبلغه تصور الانسان وبصره وحسه ٠ امسكوا بتصوركم كيلا يتجاوز حدود حواسكم ٠

يتحتم عليكم أن تبدأوا بخلق ما كنتم تسمونه عالما من قبل فيتكون عالمكم من تفكيركم وتصوركم وارادتكم ومحبتكم وعندئذ تبلغون السعادة يا من تطلبون المعرفة • وكيف تطيقون الحياة اذا لم يكن لكم هذا الرجاء ؟

على من يطلب المعرفة ألا يتورط في ما يريده العقل من المعميات • لسوف أفتح لكم قلبي فلا تخفى عنكم خافية ، فأقول لكم : لو كان هنالك أرباب أكنت أتحمل الا أكون ربا ؟ اذن ليس في لكون أرباب •

لقد استخرجت لذاتي هذه النتيجة ، وها هي تستخرجني الآن •

ان الله افتراض ولكن من له بتحمل كل ما يضمر هذا الافتراض من اضطراب دون أن يلاقي الفناء ؟ أتريدون أن تأخذوا من الخالق ايمانه ومن النسر تحليقه في أجواز الفضاء ؟

ان الله عبارة عن ايمان ينكسر به كل خط مستقيم ويميد عنده كل قائم ، فالزمان لدى المؤمن وهم ، وكل فان في عينيه بطل وخداع ، فهل مثل

هذه الافكار الا أعاصير تتطاير فيها عظام البشر وتورث الدوار لشاهدها ؟ تلك افتراضات يدور المبتلي بها على نفسه كالرحى حتى يموت ٠

أفليست من الشر والافتيات على الانسانية كل هذه التعاليم تقيم الواحد المطلق الذي لا يناله تحول ولا تغيير ؟

ان الرموز وحدها لا تتغير ، وطالما كذب الشعراء ، غير أن خير ما يضرب من الامثال ما يصور الحاضر وآتي الزمان فيأتي حجة لكل زائل لا نقضا له ٠ ليس في غير الابداع ما ينقذ من الأوجاع ويخفف أثقال الحياة ، غير ان ولادة المبدع تستدعي تحولات كثيرة وتستلزم كثيرا من الآلام ٠

أيها المبدعون ستكون حياتكم مليئة بمرير الميتات لتصبحوا مدافعين عن جميع ما يزول ٠ على المبدع اذا شاء أن يكون هو بنفسه طفل الولادة الجديدة أن يتذرع بعزم المرأة التي تلد فيتحمل أوجاع مخاضها ٠

لقد اخترقت لي طريقا في مئات النفوس والأسرة وأوجاع المخاض غير أنني كثيرا ما نكصت على

أعقابي لأنني أعرف ما تقطع الساعات الاخيرة من نياط القلوب ٠

ولكن ذلك مـا تطمح ارادتي المبدعة اليـه ، وبتعبير أشد صراحة ذلك هو المقصد الذي تريده ارادتي ٠

ان جميع ما في من شعور يتالم مقيدا سجينا ، وليس غير ارادتي من بشير يؤذن بالمسرة ، ويأتي بالافراج عن الشعور ٠

ان الارادة وحدها تحرر ، وما بغير هذه الآية من شرعة صحيحة للارادة وللحرية ، على هذا تقوم تعاليم زرادشت ٠

بعدا وسحقا لكل وهن وملال يشـلان الارادة ويوقفان كل تقدير وابداع ٠ ان طالب المعرفـة يشعر بلذة الارادة والايجاد وبلذة استحالة الذات الى ما تحس به في أعماقها ، فاذا انطوى ضميري على الصفاء فما ذلك الا لاستقرار ارادة الايجاد فيه ٠ وهذه الارادة هي ما أهاب بي للابتعاد عن الله وعن الآلهة ، اذ لو كان هنالك آلهة لما بقي شيء يمكن خلقه ٠

ان طموح ارادتي الى الايجاد يدفعني أبدا نحو الناس اندفاع المطرقة فوق الحجر • أيها الناس انني ألمح في الحجر تمثالا كامنا هو مثال الامثلة • أفيجدر أن يبقى ثاويا في أشد الصخور صلابة وقبحا ؟

ان مطرقتي تهوي بضرباتها القاسية على هذا السجن فأرى حجره يتناثر •

أريد أن أكمل هذا التمثال • ان طيفا زارني والطف الكائنات وأعمقها سكوتا قد اقترب مني •

لقد تجلى بهاء الانسان المتفوق لعيني في هذا الخيال الطارق فمالي وللآلهة بعد • هكذا تكلم زرادشت •

زرادشت والكهنة :

وتمثل زرادشت مرور رهط من الكهنة أمامه فقال لأتباعه : هؤلاء هم الكهنة ، فعليكم ــ وان كانوا أعدائي ــ أن تمروا أمامهم صامتين وسيوفكم ساكنة في أغمادها ، فان بينهم أبطالا ومن تحملوا شديد العذاب فهم لذلك يريدون أن يعذبوا الآخرين •

انهم لأعداء خطرون ، وما من حقد يوازي ما في اتضاعهم من ضغينة ، وقد يتعرض من يهاجمهم الى تلطيخ نفسه ، لكن بيني وبينهم صلة الـدم وأنا أريد أن يبقى دمي مشرفا حتى في دمائهم ٠

وعاد زرادشت يتمثل أنهم مروا وانصرفوا ، فشعر بألم شديد قاومه لحظة حتى سكن روعــه ، فقال : ــ انني أشفق على هؤلاء الكهنة ، وأنــا لا أزال أنفر منهم ولكنني تعودت الاشفاق مرغما نفوري منذ صحبت بني الانسان ، ومع ذلك فأنــا أتألم مع الكهنة لأنهم في نظري سجناء يحملون وسم المنبوذين في العالم ، وما كبلهم بالأصفاد الا مــن دعو مخلصا لهم ، وما أصفادهم الا الوصايا الكاذبة والكلمات الوهمية ، فليت لهؤلاء من يخلصهم من مخلصهم ٠

لقد لاحت لهؤلاء الناس جزيرة في البحر على حين ثارت عليهم زوبعة فنزلوا اليها فاذا هم على ظهر تنين نائم على العباب ٠

وهل من تنين أشد خطرا على أبناء الحياة من تنين الوصايا والكلمات الوهمية وقد كمن فيهـ

المقدور طويلا حتى حان وقت انتباه التنين ؟ وها هو يهب مفترسا جميـــع مـــن بنـــوا مساكنهم على ظهره •

انظروا الى المساكن التي بناها هؤلاء الكهنة وقد أسموها كنائس وما هي الا كهوف تنبعث روائح التعفن منها • وهل للروح أن ترتفع الى مستواها تحت لألاء هـــذه الانوار الكاذبـــة وفي هـــذا الجو الكثيف ، حيث لا يسود الا عقيدة تصم النـــاس بالخطيئة وتأمرهم بصعود درجات الهيكل زحفا على الركب ؟

انني لأفضل أن أنظر الى اللحظات الفاحشة من أن أرى هذه العيون أطبقت أجفانها معلنة خشوعها واستغراقها •

من ذا الذي اخترع هذه الكهوف وهذه الدرجات يرقاها النادمون زاحفين ، أهي من ايجاد من استحيوا من صفاء السماء فلجأوا الى الاستتار ؟

لن أعود بقلبي لألج مساكن هذا الاله الا اذا انثلمت قبابها واخترقهـــا نور السمـــاء الصافيـــة لتتكشف عن الشقائق الحمراء النابتة على جدرانها المتهدمة •

لقد أراد هؤلاء الكهنة أن يعيشوا كأشلاء أموات فسربلوا جثثهم بالسواد فاذا هم ألقوا مواعظهم انتشرت منها رائحة اللحود •

ان من يجاور هؤلاء الناس فكأنما هو ساكن على ضفة الانهار السوداء حيث لا يسمع الا نقيق الضفادع الحزين •

ليسمعني هؤلاء الناس نشيدا غير هذا النشيد لآمرن نفسي على الاعتقاد بمخلصهم ، اذ لا يلوح لي ان أتباع هذا المخلص قد ظفروا بالخلاص •

لكم أتمنى أن أراهم عراة ، وهل لغير الجمال أن يدعو الناس الى التوبة ؟ ولكنهم عبارة عن فجائع مستترة لا يسعها أن تجتذب الى الايمان أحدا •

والحق ، أن مخلصي هؤلاء الكهنة نفسهم لم ينحدروا من سماء الحرية وما وطئوا مسالك المعرفة قط ، فما كانت حكمتهم الا نسيجا ملأته الخروق رقعوه بما أوجد جنونهم من آلهة • لقد أغرقتهم حكمتهم في بحيرة الاشفاق ، فهم كلما زفروا فيها أرسلوا بجثة عظمى تطفو على سطحها •

لقد زعق هؤلاء الرعاة بقطعانهم فمضت متدافعة في فجوة واحدة وقد علا صراخها كأن التوصـــل الى مخارج المستقبل ممتنع من غير هذه الفجوة الضيقة، أما والحق ما هؤلاء الرعاة الا فريق من هذه السائمة وقد ضاقت عقولهم ورحبت نفوسهم وسرعان مـــا تصغر العقول اذا كبرت النفوس •

لقد تركوا على كل معبر اجتازته أرجلهم آثار الدماء ، اذ كانوا يستلهمـــون جفونهـــم ليعلمـــوا الناس ان الدماء تقوم شاهدة للحق • وقد جهلوا ان أفسد شهادة تقوم للحق انما هي شهادة الدم ، لأن الدم يقطر سما على أنقى التعاليم فيحولها الى جنون والى أحقاد •

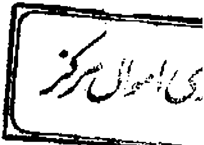
أفتقيمون للحق دليلا من اقتحام أحد النـــاس للهب في سبيل تعاليمه ؟ وهل لمثل هذا التعليـــم ما للعقيدة التي تتولد متقدة من لهبها نفسه ؟ اذا ما تلاقي رأس بارد بقلب مضطرم نشأت من التقائهما تلك العاصفة التي يدعوها الناس مخلصا ، ولكم وجد على الارض من رجـــل أعرق منشأ وأرفـــع مقاما ممن يدعوهم الشعب مخلصين ، وما كـــان هؤلاء المخلصين الا عاصفات كاسحات تهب متوالية

على الأرض •

اذا ما كنتم تنشدون سبل الحرية ، أيها الأخوة ، فعليكم أن تنقذوا أنفسكم حتى ممن يفوقون هؤلاء المخلصين عظمة ومجدا • فان الانسان المتفوق لم يظهر على الارض بعد • لقد حدقت بأعظم رجل وبأحقر رجل عن كثب وهما عاريان فظهرا لعيناي متشابهين ، بل رأيت أعظمهما أشد توغلا في المصائب البشرية من الآخرين • هكذا تكلم زرادشت •

هذه هي بعض أفكار نيتشه التي وردت في كتابه « هكذا تكلم زرادشت » قدمناها للدلالة على أن تفكير نيتشه والمعارك العقلية التي خاض غمارها في عصره قد أفقدته توازن عقله ، « فالمرء كان يجد دائما شيئا مرعبا يدفعه الى الحرب ضد مذهب أخلاق عصره ، لكن العصر سينتقم ، وسيكون له انتقامه من الداخل ومن الخارج معا » •

« تمت »



الفهـــرس